1

شحّ المطر، فاستنجد الناس برجل صالح مستجاب الدعاء، وانهمر مطر غزير غريب غير مألوف، تمس الرجل قطرة من مائه، فيكبر ما يملكه ولا تملكه النساء، وتمس المرأة قطرة من مائه، فيكبر نهداها وردفاها، ففرحت النساء، فالحقيقي ليس كالمزور، والعمليات التجميلية باهظة التكاليف، واحتفل الرجال بهذا التصحيح الذي يجعل من الغصن جذعاً، ولكن بعضهم لم يكتف بما حصل عليه مجاناً، وطالب بمطر آخر يعلّم التهذيب لأهبل يظن أن كبره يعفيه من الوقوف احتراماً للنساء.

وطالبت نساء بمطر عاجل يتيح لهن الحبل والإنجاب بغير رجال، فيعاني الرجال البطالة، ولا يحظون أينما حلّوا إلاّ بالطرد والهزء والازدراء، وتنقض النساء على النساء والرجال على الرجال.

2

لم يكن فؤاد غير رجل شديد الشبه بالرجال الآخرين، يوشك قلبه أن يتوقف عن الخفقان كلما رأى امرأة جميلة، وقد قال لعائشة المرأة الرشيقة إنه يحبها، وقال لصباح المرأة السمراء إنه يحبها جداً، وقال لنهلة المرأة الشقراء إنه يحبها للغاية، وقال لحنان المرأة الناصعة البياض إنه يحبها حتى الموت، وقال لفدوى المرأة المكتنزة اللحم إنه يحبها إلى الأبد، فكان ردّ كل واحدة مختلفاً عن الأخرى، ولكنهن اتفقن من دون أن يلتقين على أنه ليس بالجندي الباسل المؤهل لانتزاع النصر في معارك حاسمة، فازدرى فؤاد النساء الخمس، ولكنه أيقن أن الفوز بالنساء يتطلب منه أن يضيف إلى كلامه معهن جرعة من الجرأة المهذبة، فحملق إلى نهدي مريم المرأة الشبيهة بالنار، وقال لها: «أنا أحب تسلق الجبال».

وحملق إلى بطنها، وقال لها: «وأنا أحب النزول إلى الأودية».

فقالت له مريم عابسة الوجه، ساخطة الصوت: «أراك كسولاً تكتفي بالكلام وحده من دون أن تتسلق جبالاً أو تهبط أودية».

فاقتنع فؤاد أن النساء قد تبدلن وتشوهن وصرن غير صالحات للفحول من الرجال، وتزوج رئيفة المرأة التي كانت تنقب في أعماق الأرض عن رجل يتزوجها، ولكنها طلبت الطلاق منه بعد أسبوع واحد من زواجهما، فاستغربت صديقاتها ما حدث، وألححن عليها أن تحكي عن سبب محدد، فاكتفت بالابتسام الماكر والقول إن زوجها كان دائم الوقوف أمام المرايا، وإنها سمعت رعداً ورأت برقاً، ولم ينهمر أي مطر.

3

كانت الزوجة والزوج يتأهبان للنوم في غرفة يسودها ظلام الليل، فقالت الزوجة لزوجها بصوت خفيض: «كل النساء أعرفهن يحببن الليل، وأنا لا أطيق الليل، فهل تستطيع تخمين السبب؟».

فقال لها على الفور: «لأنك في الليل تفضلين الاستلقاء على بطنك، وأنا أجبرك على الاستلقاء على ظهرك».

فاستلقت على بطنها، وقالت له بصوت مرتعش: «لماذا لا تحاول إقناعي بمحاسن الليل، فأنا امرأة غير متعصبة تقنعها الآراء المدعومة بالحجج والبراهين؟».

فابتدأ يحكي لها عن الليل بصوت لاهث متقطع، وكانت الريح الباردة تعصف خارج الغرفة، فازداد التصاق الزوجة بزوجها، ونبهته إلى أن حطب المدفأة احترق كله، وتحتاج إلى مزيد من الحطب، فلم يسارع إلى إحضار الحطب المطلوب، وتصرف كأن الرجل حطب والمرأة مدفأة.

4

لم يبالِ الأولاد الثلاثة بشمس الظهيرة المحرقة، وتابعوا اللعب في الزقاق المقفر مثيرين ضوضاء كأنهم عشرون ولداً، فأطل عليهم رأس رجل من نافذة بيت، وصاح بهم بصوت حانق متضجر: «اهدأوا يا عفاريت! دعونا نستريح قليلاً».

فبدا على الأولاد أنهم يعرفون الرجل الصائح، ويهابونه، وقال لهم أحدهم: «تأمر أبو سليم تأمر».

ولم يعاود الأولاد اللعب، واستندوا إلى حائط، وتحدثوا ناقمين على مدرستهم، وشتموا معلمهم المسؤول عن رسوبهم في الامتحانات، وقال الولد الأول: «وزير التعليم نفسه صديق لأمي وأبي، ولا يخالف رغبة من رغباتها، وسيجن حين يعلم بما حدث لي، وسيطرد المعلم من المدرسة».

وقال الولد الثاني: «أختي الكبيرة صديقها مدير الشرطة، ويدللني، وكلما زارنا أرسلني إلى السوق لأشتري لنفسي

شوكولاته أو كاتو، وسأخبره أن معلمنا يسب الحكومة أمامنا، وسمين وكسلان، وينام في الصف ويشخر، ويتركنا نلعب».

وظل الولد الثالث ساكتاً، فحدّق إليه زميلاه مترقبين ما سيقوله، وحاول أن يتكلم، ولكنه لم يكن لديه ما يقوله، فأمه لا تعرف غير أبيه، وأخواته لا يعرفن غير أزواجهن، وغمره الارتباك، وأحسّ أنه رسب ثانية.

5

تأخر حسن في الزواج ريثما يجد امرأة بغير تجارب حتى يكون أول رجل في حياتها وآخر رجل، ولم يتزوج إلاّ من وثق بأنها هي التي بحث عنها طوال سنوات، وما إن أصبحا وحدهما في ليلتهما الأولى حتى ساعدته على نزع ثيابه بحركات متعجلة ثم شهقت مدهوشة، وقالت له وهي تحملق إليه: «سبحان الخالق! كنت أظن أن مكان الخنصر هو في اليدين والقدمين، ويبدو أني كنت مخطئة».

فابتسم حسن بغبطة وزهو، وازداد وثوقه بأن زوجته هي فعلاً البريئة المغمضة العينين التي كان يبحث عنها.

6

اعتادت لمى أن تسهو وتضع في فمها كل ما تمسك به يدها، فنصحتها أمها بصوت غاضب مؤنب بنبذ هذه العادة السيئة خاصة وأنها مخطوبة وتوشك أن تتزوج، ولكن لمى اكتشفت بعد الزواج أن أمها ساذجة ونصيحتها مخطئة، فما اعتادت فعله وهي ساهية رائج ومطلوب ومستحسن.

7

كانت سامية لا تعلم أن مصطفى زوجها لا يطيقها وتزوجها لإرضاء أمه، ويعتبر النوم معها في سرير واحد مهمة انتحارية تستحق أن يحتفل كل صباح بنجاته من قتل بشع، ففسرت ابتعاده عنها طوال أسابيع بأنه راجع إلى أنه رجل خجل، وقررت مساعدته على الخلاص من خجله، وابتدأت مساعدتها وهما جالسان على أريكتين متقابلتين، فأغمضت عينيها ظانة أن ما تفعله إغراء لا يستطيع أي رجل مقاومته، فبدت لمصطفى كالميتة، وأوشك أن ينهض ويتلفن لطبيب، ولكن سامية بادرت إلى فتح عينيها بتثاقل، ونظرت إليه نظرة اعتقدت أنها ملأى بالرغبات المتأججة التي تجعل الرجل يجنّ ويحترق، فبوغت مصطفى بنظرتها، وفسرها بأنها تهم بلطمه أو ركله، واستعد للدفاع عن نفسه.

وكشفت سامية ثوبها عن ركبتيها بحركة متعمدة متوقعة أن يتخلى مصطفى عن خجله ويزحف نحوها مستجدياً، ولمست لحمها بأصابع سكرانة، ولكن أصابعها بدت لمصطفى تتحرك محاولة تقليد مشية السرطان أو العقرب، وسألها بقلق ما إذا كان

في البيت قمل أو بق أو نمل، فتجاهلت سؤاله، ونهضت واقفة، وتأففت بصوت عالٍ من الحر الشديد، وهمّت بخلع ثيابها، فبادر مصطفى إلى تشغيل كل ما في البيت من مراوح كهربائية، ولكن سامية لم تشعر بأية برودة، وخلعت ثيابها، فتجاهل مصطفى عريها، وحملق إلى ثيابها بفضول، ففرحت سامية وغضبت، وسألته عما يفعل، فأجاب أنه يحاول تخمين سعر كل قطعة من ثيابها، ويأمل ألاّ يخفق.

8

كانت فطمة جالسة باسترخاء في قاعة السينما المطفأة الأنوار تتفرج على فيلم مشوق، فجلس أحد الرجال على المقعد المجاور لمقعدها، وفوجئت بعد قليل بالرجل يدس يده تحت تنورتها، ويلمس لحمها، فبدرت منها حركة احتجاج، فأدنى الرجل فمه من أذنها هامساً أنه من الأفضل لها أن تسكت حتى لا تتسبب في فضيحة تؤذي المرأة ولا تؤذي الرجل، فتجمدت مستسلمة ليده، ولكنها فجأة مدّت يدها إليه، وشرعت تلمسه بأصابع شرهة متوترة خبيرة محاولة جهدها أن تكبت صوت لهاثها، فشلت أصابعه، وسارع إلى سحب يده كأن تياراً كهربائياً صعقها، ونهض عن مقعده بحركة من تذكر موعداً بالغ الأهمية كان منسياً، وأسرع في مغادرة قاعة السينما، فعادت فطمة إلى جلستها المسترخية ومتابعة الفيلم المشوق، فوجدته مثيراً للضجر.

9

كانت المرأة تمشي في منطقة بساتين مكتظة بالشجر، فانتصب أمامها رجل طويل القامة لا تدري من أي مكان أتى، وشهر عليها سكيناً طويلة النصل، وقال لها مهدداً بصوت خشن: «إياك وأن تصرخي وإلاّ ذبحتك ذبحاً».

فذعرت المرأة، وشحب وجهها. فسرّ الرجل بذعرها، ورغب في التمتع بمزيد منه، فسألها: «أتعرفين ماذا سأفعل بك الآن؟».

فأكدت له أنها لا تعرف ولا يمكن لها أن تعرف، فقال لها إنه سيغتصبها اغتصاباً لن تنساه بقية عمرها، فتنهدت المرأة بارتياح متناسية السكين القريبة منها، وسألت الرجل بصوت لا ذعر فيه: «هل ستغتصبني هنا في هذا البستان أم ستأخذني إلى بيت وسرير؟ وهل ستغتصبني وأنا واقفة مستندة إلى شجرة أو ستغتصبني وأنا ممددة على العشب؟ هل تريدني أن أخلع ثيابي كلها أم بعضها أم أنك ستمزقها بيديك وأسنانك؟ وفي أثناء اغتصابي.. هل تريد مني أن أصمت أم أن أتأوه وأتوجع؟ هل تريدني أن أبكي متوسلة أم تريدني أن أضحك منتشية؟ هل ستغتصبني مرة واحدة أم عدة

مرات؟ هل ستغتصبني وحدك أم أنك ستدعو أصدقاءك إلى مشاركتك؟».

ووجد الرجل يده تدس السكين في جيبه، ووجد قدميه تحملانه بعيداً.

10

كان عبد الغني شاباً عزباً يدهش كلما لمح في الشوارع والأسواق رجلاً يسير برفقة زوجة قبيحة، ويتساءل: هل الرجال يصابون بعمى مؤقت يشفون منه حالما يخرجون من المحاكم الشرعية مكبّلين بزوجات كالعمى الدائم؟

وكان يحلو له أن يتخيّل المرأة التي لن يتزوج غيرها: طويلة، سمراء، رشيقة، لا تبتسم أو تضحك إلاّ لزوجها، وذات خصر نحيل وردفين صلبين وعينين كبيرتين سوداوين ونهدين هما تفاح ورمان، تمشي معه أينما كان رصينة كرصانته، ومحتشمة الملابس، فيحسده كل من يراه، ولكنه تزوج امرأة مختلفة، بيضاء، سمينة، قصيرة، عيناها صغيرتان، ولا خصر لها، ولكنه ما إن يدنو منه صوتها ورائحتها وجلدها المصقول اللامع حتى يراها جميلة سمراء مثيرة تصلح لأن تؤكل فوراً بلا تأجيل، ويحس بجسده حياً حاراً تزمجر رغباته متبرمة من سجنها، فيطلقها من أقفاصها ويتبعها مزمجراً مثلها ومستغرباً أن يكون في آن واحد سجاناً ومسجوناً.

وكانت زوجته تحرص كل صباح على مرافقته حتى باب البيت

وتوديعه، فابتسمت له ذات صباح ابتسامتها الغامضة الشرهة، وطلبت منه بصوت خافت أن لا يتأخر مساء في عمله، فترك عبد الغني عمله ظهراً بحجة إصابته بزكام حاد، وعاد إلى بيته مسرعاً ليجد زوجته جاثية على أرض المطبخ تمسح بلاطه وقد ارتدت ثوباً قصيراً لا يليق بالنساء الشريفات، ففتح فمه ليكلمها معاتباً مستنكراً، ولكنه تكلم ممتدحاً، واقترح عليها أن تشتري ثوباً أقصر يغنيها عن التكرار الممل لخلع الثياب وارتدائها، وعرض عليها أن يساعدها في أعمال البيت، فرفضت، وذكرته بأنها امرأة لا تحب الموضة، وتؤمن بأن الرجل في البيت ليس له غير عمل واحد، وانحنت لتعاود مسح البلاط بحركات عنيفة رتيبة.

11

نظر عماد إلى مها مفتوناً بوجه من ورد أبيض وورد أحمر، واقترح عليها زيارة بيته لترى السرير العريض المريح الذي اشتراه مؤخراً، فابتسمت، واقترحت عليه نزهة في الهواء الطلق احتفالاً بشرائها سيارتها الجديدة، فقال لها إنه يفضل الهواء الطلق تحت اللحاف، فلم تأبه له، وقادت سيارتها بحركات واثقة مبتعدة عن طرقات المدينة وأبنيتها، وسلكت دروباً تنتشر الحقول على جانبيها، واختارت حائطاً واطئاً من تراب، وأوقفت سيارتها لصقه، وقالت لعماد: «آن الأوان لتحريك دمك قليلاً».

وتركا السيارة، وسارا في حقول خضر، يوصلهما كل حقل إلى حقل آخر حتى بلغا أرضاً فسيحة مغطاة بالعشب الأخضر والأزهار البرية الصفر والبيض والحمر، فهتفت مها بفرح: «هيا نتسابق في الركض».

فقال عماد فوراً متسائلاً: «وما جائزة الفائز؟».

فتأملته ملياً، وضحكت قائلة: «سيحق للفائز أن يفعل بالخاسر ما يشاء».

وانطلقا يركضان، فركضت مها بسرعة غزال مذعور يطارده الصيادون، وركض عماد بسرعة السلحفاة، وفاز الغزال على السلحفاة فوزاً ساحقاً، فلم يخجل عماد من خسارته، وأقرّ بها، وتمدد بشجاعة على العشب غير متهرب من أن يدفع ثمن خسارته حتى لو كان باهظاً، ولكن مها وكزته بقدمها، وأمرته بالنهوض، واقتادته بغير مقاومة إلى سريره العريض المريح، وهناك فعلت كل ما تشاء، وحطت فراشة بيضاء على فمه، فحاولت شفتاه الفضوليتان القبض عليها، ولم يستطع اللسان الاكتفاء بالتفرج، واندفع إلى المشاركة في الصيد مستعرضاً براعته في المطاردة والمراوغة.

12

كان مروان القصير موظفاً في أحد البنوك، وشديد الإعجاب بوفيقة زميلته في العمل، ولكنه كان يكتفي بالنظر إليها صامتاً متحسراً، ويحرص على أن تخلو عيناه من أية نظرة متشهية، فوفيقة امرأة ليست بالسهلة، جميلة، جذابة، رصينة، متدينة، جادة، وترسم حدوداً صارمة لا يحق لمن تكلمه أن يتجاوزها، ولكن رضوان في لحظة من اللحظات تشجع وتجرأ على دس ورقة مطوية في يدها، تضمنت عنوان بيته بالتفصيل ورجاء بأن تأتي إليه يوم عطلتهما الأسبوعية في أي وقت تشاء لأمر ضروري جداً جداً، وما إن رجع إلى بيته وفكر في ما فعله حتى ندم واتهم نفسه بالغفلة والسخف والسذاجة والوقاحة والصفاقة، وسرّ في اليوم التالي بأن وفيقة كانت طبيعية كالعادة كأنها أضاعت رسالته من دون أن تقرأها، ولكنه لازم بيته في يوم العطلة بغير سبب، وبوغت بحضور وفيقة، فحاول أن يتكلم مرحباً بها، ولكن فرحه طغى على كل كلماته، وصدرت عن فمه تمتمات غامضة جعلته يدرك أن وفيقة لو تسرعت وسألته تواً عن (الأمر الضروري جداً) لتلعثم وتأتأ،

ولبدا غبياً مضحكاً، ولكنها لم تسأله أي سؤال، وتبعته إلى غرفة ليس فيها إلاّ أريكة واحدة، وجهاز تلفزيون وطاولة صغيرة، قصيرة القوائم، وجلست على الأريكة قائلة إنها لن تمكث سوى دقائق، وتطلعت في ما حولها بنظرات مستطلعة، وقالت إن بيته خانق، ونزعت الغطاء عن رأسها، فرأى مروان شعراً أسود طويلاً وعنقاً رشيقاً لم يسبق له أن رآهما، وكانا دائماً مختفيين تحت غطاء محكم لا يظهر إلاّ الوجه فقط، فزحفت يده نحو يدها، وأمسكت بها، فقالت وفيقة بصوت فخور إن يدها لا تعرق مهما اشتد الحر، فتنبهت آنذاك يده الممسكة بيدها إلى أن ثمة غنائم أخرى أثمن وأشهى، وتجمدت لحظة متحيّرة ثم انتقلت إلى الركبة متظاهرة بأنها مجرد رأس طفلة راغبة في النوم، فقالت وفيقة إنها لم تزره إلاّ لتمتحنه وتتأكد من أنه يحترم زمالة العمل ويفهم معنى العلاقة البريئة بين رجل وامرأة، فهزَّ برأسه واثقاً بأنه سينجح في امتحانها، وأطبق بفمه على شفتها السفلى المكتنزة محاولاً أكلها، فقالت له وفيقة إنها امرأة شريفة متزوجة تفضل الموت على خيانة زوجها، واسترخت في جلستها على الأريكة، فصدر عن جوف الأريكة صوت ينبىء بأن ثمة شيئاً قد تحطم، فضحكت وفيقة، وقالت لمروان إن من باعه الأريكة قد غشه، فهي لا تحتمل ثقل اثنين، وربما صنعت لواحد فقط، فاقتادها مروان إلى غرفة نومه حيث السرير القوي القوائم، وحاول تجريدها من ثيابها، فتهربت من يديه محمرة الوجه كأنها أهينت، وبدأت بخلع كل ثيابها من دون أية مساعدة، وكلما خلعت قطعة، رمتها إلى الأرض بحركة من يعتزم ألاّ يعود إلى ارتدائها، ووقفت عارية، رصينة، جادة، واثقة بنفسها، وتمطت كأنها تتأهب لركض طويل، فارتبك مروان، وسارع إلى تغطية

لحمها بلحمه بدلاً من اللحاف، فطلبت منه أن لا يحاول إفساد وضوئها، وقالت له بعد لحظات من الصمت بصوت خفيض لاهث: «اسمك كله غش وكذب، غيّره من مروان القصير إلى مروان الطويل».

وعندما عمت الظلمة، وقفت وفيقة أمام المرآة، وتأكدت من أن غطاء رأسها لا يظهر إلاّ وجهها، وغادرت البيت برفقة مروان الذي كان يمشي متعثر الخطى، خائر القوى، وسارا معاً قاصدين موقفاً قريباً للباصات، وقد حملقت وفيقة باستنكار إلى فتاة تسير حاسرة الرأس، وقالت لمروان بصوت مملوء بالأسف إن الفساد بات متفشياً، فهزَّ رأسه موافقاً.

13

كان عثمان المدّان وبكري الغبشي صديقين في حي واحد، وشريكين في بقالية ناجحة كثيرة الزبائن، ولم يختلفا مرة واحدة منذ أن كانا صغيرين، ولكن نائلة زوجة عثمان وفريال زوجة بكري اختلفتا بعد لقائهما أول مرة في حمام للنساء بغير اتفاق، ولاحظت فريال أن نائلة تتطلع بإشفاق إلى ثدييها المتهدلين، ونصحتها بإجراء عملية تجميلية لهما مدعية أن هذا ما تفعله كل النساء سراً، ثم بلغ فريال أن نائلة تحكي للكبير والصغير عما رأته في الحمام، وتشبه ثدييها بجوربين فارغين، فنشأت بين المرأتين بغضاء لا تمحى، وخاضتا غمار معركة ضارية مباح فيها استخدام كل الأسلحة، وصارت كل واحدة تشيع عن الأخرى ما يسيء ويشوه.

وفي إحدى الليالي، قالت فريال لبكري: «اليوم زارتني زوجة شريكك المحترم، وعيّرتني بأني متزوجة من رجل كان يصلح للنساء بينما هي متزوجة رجلاً يضاجعها في الليلة الواحدة ثلاث مرات».

فقال بكري بدهشة: «أف! ثلاث مرات؟».

14

كان حامد نائماً، فانهار فوقه السقف فجأة، فاستيقظ من نومه مرعوباً، وروى ما رآه لجار طاعن في السن عرف بخبرته في تأويل المنامات، فقال له الجار متسائلاً: «أتريد كذباً يفرح أم صدقاً يجرح ويحزن؟».

قال حامد لجاره: «سأجرب أولاً سماع الكذب».

قال الجار: «ستنجو من هموم تظن أنها صخور، فإذا هي لا أكثر من غبار».

قال حامد: «والآن سأسمع الصدق».

فابتسم الجار، ونصح حامداً بأن يفتح عينيه في النهار والليل ويراقب سلوك زوجته، فقال حامد بدهشة: «ولكني كما تعلم لست متزوجاً».

قال الجار: «ستتزوج عما قريب، فلا تنس أن تراقب من ستتزوجها لئلا تندم».

وتحققت نبوءة الجار، وتزوج حامد بعد أشهر أرملة ذات خبرة،

ولم يهمل نصيحة جاره، وراقب زوجته رقابة من يتوقع شراً، ولكنه تناسى أن يراقب نفسه، فضبطته زوجته في غرفة الضيوف ملتصقاً بضيفه الشاب، وبادرت إلى طرد ضيفه، وحدث حامد زوجته بصوت متقطع عن احترامه لعادات قديمة تحث على إكرام الضيف، فقاطعته صائحة بحنق: «ألا أصلح أيضاً ضيفاً يستحق الإكرام؟ ولماذا لم تنبهني إلى ما تفضله وأفضله؟».

وانحنت مثلما كان ينحني ضيفه الشاب، فأقرّ حامد أنه كان أعمى وجاهلاً.

15

تتلمظ الطيور حين ترى نزيهة، وتقول عليها إنها شجيرة تين نضجت ثمارها، وحان وقت أكلها، ولكنها لا تمس على الرغم من أنها مطوقة برجال يهيمن عليهم جوع قديم طاغ شرس لا بد له من أن يظفر يوماً بكل ما يرغب فيه، ووجدت نزيهة نفسها ذات مساء تتلفن لأمها وهي تشهق وتنتحب، فبهتت الأم، وسألتها: «هل تبكين نادمة لأنك تركت بيت أهلك واستأجرت بيتاً عشت فيه وحدك مثل الزعران؟».

فاستنكرت نزيهة سؤال أمها، وأخبرتها أنها تبكي لأنها عادت من عملها إلى بيتها متعبة كالعادة، ففوجئت برجل غريب في مطبخها لم تره من قبل ولم تعلم كيف دخل البيت، وطالبها بأن توافق على الزواج به فوراً، فقالت لها أمها مقاطعة: «مثل هذا الطلب لا يرفض إذا كان صاحبه غنياً وابن أسرة محترمة».

فأكدت نزيهة لأمها أنها رفضت طلبه، ونصحته بمراجعة طبيب نفساني، فعرض عليها أن يتزوجا فوراً بلا زواج، فسألتها الأم بفضول: «وماذا فعلت؟».

فقالت نزيهة بحنق: «اسألي عما فعلَ ولا تسألي عما فعلتُ. حملني كأني رضيعة، وطرحني على طاولة المطبخ، وتزوجني بلا زواج».

قالت الأم مستغربة: «لم أفهم. كيف تزوجك بلا زواج؟».

قالت نزيهة: «ما جرى لا يحكى عنه، ولا تنسي أني شديدة الخجل».

فتساءلت الأم بصوت مرح: «وهل قاومت؟».

فأجابت نزيهة: «قاومت بقوة مائة امرأة، ولم تبق قطعة من جسمه لم أعضها بأسناني وأخمشها بأظفاري».

فضحكت الأم كأن كل ما سمعته ليس سوى نكتة، وسألت نزيهة: «أأنت واثقة بأن ما جرى لك ليس تخيلات كالعادة؟».

ولم يتح لنزيهة أن تجاوب لأن الاتصال التلفوني انقطع فجأة، وانتظرت أن تحاول أمها مكالمتها ثانية، ولكن التلفون لم يرن، فاغتاظت نزيهة من أمها، واتهمتها بالأنانية، وتلفنت لصديقتها حنان التي تعتبرها الأولى بين الصديقات، وطلبت إليها أن تنصت لما ستقوله من دون أن تقاطعها بكلمة واحدة، وحكت لها كيف أنها بينما كانت تفتح باب بيتها فوجئت بشاب وفتاة يدفعانها إلى داخل البيت، ويعصبان فمها، ويقيدان يديها وقدميها، ويغيبان في غرفة النوم ساعة أو ساعتين ثم يخرجان منها متوردي الوجهين ضاحكين، ويغادران البيت شاكرين، وتهمس لها الفتاة وهي تفك قيودها: «أنت امرأة وتعرفين مشاكل الشاب والبنت إذا كانا بلا بيت».

وقالت نزيهة لحنان: «حكيت لك كل ما عندي، فهيا تكلمي وقولي لي رأيك في ما حدث».

قالت حنان: «في المرة الثانية، تذكري أنك صاحبة البيت، ومن حقك أن يجري كل شيء أمام عينيك، فالبيت بيتك، واشترطي أن تقيّدي في غرفة النوم».

فصاحت نزيهة مغتاظة، وقطعت اتصالها بصديقتها، وتلفنت لرجال الشرطة، وأخبرتهم بصوت متهدج هلع متقطع أن رجلاً غريباً لا تعرفه قد دهم بيتها، وينوي سرقة كل ما لديها من ثياب وحلي وأثاث، وسيسرق حتى الثياب التي ترتديها، وسيغتصبها مرتين على الأقل إذا لم يسارعوا إلى الحضور، فسألها الشرطي الذي كان يرد على مكالمتها: «وهذا الرجل؟ أين هو الآن؟».

قالت نزيهة: «تذمر من وسخه، وهو الآن يستحم في الحمام ويغني بصوت عالٍ يزعج الجيران».

قال الشرطي ناصحاً: «حاولي الهرب في أول فرصة تسنح لك».

فصاحت نزيهة مدهوشة مستغربة مستنكرة: «البيت بيتي، فلماذا أهرب منه؟».

قال الشرطي بصوت هامس: «ما صفاته؟ تذكري التفاصيل. التفاصيل الصغيرة مهمة لنا».

قالت نزيهة: «هو على ما أذكر طويل عريض، أشقر الشعر، له ابتسامة تبدأ من عينيه وتنزل إلى فمه».

قال الشرطي: «سنرسل إليك دورية شرطة في أسرع وقت،

فالزمي الهدوء، ولا تحاولي إغضابه أو استفزازه وافعلي كل ما يريده حتى لا تصابي بأذى».

فأفلتت أصابع نزيهة سماعة التلفون، وأصغت، فلم يبلغ أذنيها أي غناء لرجل في الحمام، فابتسمت مرتبكة، فدورية الشرطة حين تأتي ستكتشف أن الرجل الغريب اكتفى بالاستحمام فقط ولاذ بالفرار.

16

كان أبو سعيد الديب يدخن نرجيلته ويتأمل الشمس الآفلة وهو جالس على شرفة بيته في الطابق الثالث المطلة على حدائق البنايات الأخرى، ويأكل فاكهة تتولى زوجته تقشيرها وتقطيعها وتقديمها إليه، فقرع باب البيت فجأة، وأتى من أخبره أن أصغر أولاده قبض عليه بينما كان مشاركاً في مظاهرة تطالب بتغيير الحكومة، فغضب أبو سعيد، وصاح بزوجته: «أسمعت يا أمينة خانم؟ ابنك في السجن. ولماذا؟ لأنه ضد الحكومة. أرأيت نتائج تربيتك؟».

فقالت أمينة: «أولادك كلهم مثلك، لا أحد منهم يقبل النصيحة، وكلهم مثلك لا يفعلون إلاّ ما في رؤوسهم».

قال أبو سعيد مستنكراً آسفاً: «أنا؟ يقبض على ابني في مظاهرة ضد الحكومة؟ ما علاقتنا بالحكومة؟ لا نعرفها ولا تعرفنا، وليست جارتنا ولسنا جيرانها».

وتذكر أبو سعيد بحسرة جده الذي كان عجوزاً عندما شارك في مشاجرة، وجرح بخنجره خمسةً من أشهر القبضايات، وخرج

من المشاجرة من دون أن يمس، وتذكر أباه الذي قضى حياته شهراً في البيت وسنة في السجن من دون أن يتوب عن تهريب السلاح المحظور وبيعه، وتذكر حارة المزابل التي ولد فيها، وشهدت أيام شبابه، وتذكر أهلها الغاضبين على اسمها الذي يجلب لهم الخزي، فغيّروه من حارة المزابل إلى حارة الشرف الأعلى، ولكن اسمها الجديد لم ينجح في منع الحارات الأخرى من الاستمرار في السخرية من سكانها، فاضطر إلى هجرها والسكن في بيوت حديثة تتناثر في شوارع عريضة حتى يخرس كارهيه، وتذكر أبناءه المهابين الذين ينشرون الخوف حيثما حلوا ويتشاجرون مع ظلالهم، فازدادت نقمته على أصغرهم، وقال لأمينة: «هذا ليس ابني، وأنا متبرىء منه حتى يوم القيامة».

ولكن باب البيت سرعان ما قرع ثانية، وجاء من يصحح الخبر، فأصغر أولاده لم يعتقل في مظاهرة، بل اعتقل عارياً في غرفة مومس عندما دهم رجال الشرطة في الليل بيوتاً سيئة السمعة، فتنهد أبو سعيد بارتياح، وسأل عن المومس، أهي جميلة أم قبيحة؟ وهل تستحق أجرها أم أن ابنه مغشوش؟ فقيل له إن ابنه كان مدللاً لدى المومس، وتسمح له بارتيادها مجاناً، فأوشكت عينا أبي سعيد أن تبتلا بالدموع تأثراً وفخراً بعائلة لا تزال تنتقل من مجد إلى مجد.

17

كان محسن المحسن رجلاً تتزاحم أجمل النساء على العمل تحت إمرته، واشتهر بأنه إذا وعد رجلاً بامرأة جميلة، اتضح كذبه بعد ساعات قليلة لأن المرأة لن تكون جميلة فقط بل ستكون أيضاً ساحرة ومطواعة وغير طماعة.

وكانت العائلات الغنية المعروفة والعائلات الفقيرة المغمورة تتبارى في دعوته إلى بيوتها والترحيب به، فكان يلبي كل الدعوات شاكراً، ويجد في كل بيت ما يثيره ويسليه ويطور أعماله ويدعمها بالجديد من الكفاءات المتحمسة.

وكان محسن المحسن أيضاً رجلاً جذاباً بحق، أحبته نساء كثيرات، وأحب نساء كثيرات، ولكنه فجأة عاف النساء واجم الوجه يغالب اشمئزازاً يحاول إخفاءه، وأحب جداراً في إحدى الأسواق، ورحب بأن يصير جداراً من حجر أسود ينتصب قبالة الجدار الذي أحبه، وظفر بأيام مفعمة بالطمأنينة والسعادة حتى إنه لم يكن يبالي بأطفال يبولون عليه. أما النساء اللواتي كن يعملن تحت إمرته، فقد تبدلن، وصرن قبيحات وفظات وفرائس لطمع بلا

حدود، يعاهدن على تقديم الكثير، ولا يعطين إلاّ القليل، فكان الرجال يقصدونه مشتكين، ويحاولون إقناعه بالعودة إلى مساعدتهم، فيتشبث بصمته مبتهجاً بأنه جدار، ولم تستمر بهجته طويلاً إذ صدر قرار رسمي عاجل بتوسيع السوق، فهدمت جدران كثيرة، وتمنى أحدها أن يعاد استخدام حجارته السود في بناء سجن للنساء.

18

كانت سهير سلمون امرأة لا نظير لها، ذاع صيتها لكونها لا ترفض طلباً لرجل بحجة أن لديها من اللحم الغض الشهي ما يكفي كل الجائعين مهما تكاثروا، وكانت تعطي ما تعطيه بلا مقابل قائلة بصوت متهدج إنها لا تملك مالاً تتصدق به على الفقراء والمساكين واليتامى.

وفي إحدى الليالي، امتلأ بيتها وغرفة نومها بضيوفها من الرجال، وقد أجمعوا على أن لحمها الأبيض ثلج ملتهب لا يتحول ماء، وأن شفتيها أجمل توت بري تنبته غابة، فأخجلها المديح، وغمغمت محمرة الوجه: «الجمال جمال الأخلاق».

فامتدح ضيوفها أخلاقها الدافئة الضيّقة الصلبة اللينة، فازداد احمرار وجهها، وبدت كالسكرى، وبللت شفتيها بلسانها، وأخبرت ضيوفها أن يدها اليوم لمست مصادفة حائطاً من حجر، فغطاه فوراً عشب أخضر، فاندفعوا إلى يدها يتبركون بها، ولكن أحدهم عارضهم قائلاً إنه لا يصدق كلامها لأن يدها ما إن تلمس

اللحم حتى يفقد ليونته ويتصلب ويقسو ويتحجر ويتوحش، فضحك ضيوفها كأنهم لم يضحكوا طوال حياتهم.

وبوغتت سهير بشاب تعرفه خجولاً كالبنات يصيح: «عند الامتحان يكرم المرء أو يهان».

وانحنى أمامها بتهذيب طالباً منها أن تلمس ما تشاء، فإذا نبت عشب أخضر على ما لمسته، فهي صادقة، فبهتت سهير، وتألمت خفية لأنها لم تصف إلاّ ما حدث فعلاً، ونامت شديدة الاكتئاب، فأتاها في المنام زائر غامض، قسمه العلوي غارق في الظلمة، وقسمه السفلي مغمور بنور يبهر العيون، وقال لها إنها قد كوفئت على حياتها الحافلة بأعمال البر والإحسان، وستصحو من نومها لتجد نفسها قادرة على الطيران، فاستيقظت تواً، ووقفت في شرفة منزلها، وحاولت أن تطير، فإذا هي تنجح في الطيران كأنها طائرة صغيرة سريعة، وطارت واختفت عن الأنظار، فانتظرها الرجال بقلق ولهفة، ولكنها لم ترجع، فلم يصدقوا أنها يمكن أن تهجرهم، وعللوا غيابها الذي طال بأنها ضلت الطريق في السماء الرحبة أو طارت فوق أرض محرّمة.

19

حرصت هدى على أن تصحو من نومها في الصباح المبكر، وغادرت البيت على عجل تاركة زوجها نائماً كالميت، وسارت في شوارع شبه خاوية، وقصدت فرناً ذائع الصيت، واشترت منه خبزاً طازجاً ساخناً يحبه زوجها أكثر مما يحب اللحم والفاكهة، وسيسر به في طعام إفطاره، وفجأة بدأ الناس يتراكضون في طريق موصل إلى الساحة الرئيسية، فاستولى الفضول على هدى، وتبعتهم من دون تفكير، وهناك رأت مشنقة منصوبة وجنوداً مسلحين بالبنادق ورجلاً يوشك أن يشنق وشمساً تهمّ بالشروق، وقد طوّق الحبل عنق المحكوم بالإعدام، فنظر إلى المتفرجين المحيطين بمشنقته، فسمع ضوضاءهم فقط، ولم ير سوى هدى امرأة سوداء الشعر، بيضاء الوجه واليدين، تحملق إليه بعينين مفتوحتين إلى أقصاهما، ورأت هدى أنه قد رآها، وابتسمت كطفلة يهطل فوقها الثلج أول مرة.

وعندما تنبّه المحكوم بالشنق إلى أن ما يقف عليه موشك على الهرب من تحت قدميه، نظر إلى هدى مستغيثاً، فبهتت إذ لم يخطر

لها يوماً أن شاباً نحيلاً وديع الوجه والنظرات سيستغيث بها، وشعرت للحظات خاطفة أنه أخوها الصغير الذي يتشبث بأطراف ثوبها طالباً الحماية، ولم تدر ما تفعل، وتزايدت ضوضاء الناس وتزاحمهم حول المشنقة خاصة عندما تدلى المشنوق جثة هامدة ووجهاً أزرق، فأحست هدى أنها توشك أن تختنق، ومشت بخطوات مسرعة مبتعدة عن الناس قاصدة بيتها قبل أن يبرد الخبز، ودخلت غرفة النوم لتجد أن زوجها قد استيقظ، فقالت له: «سأعدّ لك طعام الإفطار ما دمت صحوت».

فقال لها وهو يمدّ يديه نحوها: «لن تخرب الدنيا إذا تأجل الإفطار».

وشرعت يداه تنزعان ثيابها، فاشمأزت منهما، ورغبت في الابتعاد عنهما، ولكنها لم تتحرك، وابتسمت متظاهرة باللهفة على ما سيلي، وبادرت يداها إلى مساعدة يديه، فأدهشها ما تفعله، ونقمت على ضعفها، وتاقت إلى أن تصيح وتصيح، ولكنها قفزت إلى السرير بحركة مرحة، واندست تحت اللحاف وهي تقول له: «قبل قليل، تفرجت على رجل يشنق».

فقال لها ضاحكاً: «كثيرون يشنقون كل يوم وبغير حبل ولا أحد يتفرج عليهم».

فلم تردّ بأية كلمة، فسألها: «وماذا فعل حتى شنقوه؟ خالف المرور؟!».

قالت هدى: «سمعت رجال الشرطة والناس يقولون إنه قتل عائلة بكاملها لأن أحد أفرادها قتل أخاه.. قتل الرجال والنساء

والصبيان والبنات. حتى قطتهم قتلها، ولم يأسف ويندم إلاّ على القطة».

فقال لها وهو يعانقها: «هذه حال الدنيا: من يقتل عشرة فقط مجرم ويشنق، ومن يقتل مئات الألوف هو بطل الأبطال».

فأغمضت هدى عينيها نصف إغماضة، ورأت في الغرفة الصامتة ذات النوافذ المسدلة الستائر والباب المغلق رجلاً يتحرك جاثماً فوق امرأة يطوق عنقها حبل يجبرها على أن تلهث لهاثاً متحشرجاً، ويهم بخنقها كلما حاولت الخلاص منه.

وقد رمق الرجل المرأة بنظرة طويلة متفحصة كأنه تاجر اشترى بقرة ويريد التأكد أنه لم يغش، فخجلت، وأغمضت عينيها عازمة على أن تكون لحماً هامداً، ولكن جسدها لم يبال بها، وانطلق يفعل كل ما يمتعه ويغضبها، وسمعت زوجها يقول لها بصوت ممازح إنها بعد هذا الجهد ستلد حتماً بعد تسعة شهور، فهمّت أن تستنكر كلامه كأنه لن يكون يوماً أباً لما ستنجبه من أطفال، ولكنها فضلت ألاّ تتكلم، وتخيّلت أنها عادت ليلاً إلى المشنقة، وقطعت الحبل الملتف حول عنق المشنوق، فلمس عنقه بأصابع يديه زائغ النظرات، وشكرها بصوت متلعثم، ووعدها بأنه لن يقتل أية قطة، فتمطى زوجها وتثاءب في تلك اللحظة، وسأل عن طعام إفطاره، فهمّت بأن تنصحه بالركض إلى أقرب مطعم، ولكنها ارتدت بعض ثيابها على عجل، وهرعت إلى المطبخ.

20

أعجب منير بمنيرة واسمها قبل الزواج، ولكنه لم يحبها آنذاك، وأحبها بعد الزواج من دون أن يبوح لها يوماً بحقيقة مشاعره نحوها.. أحب ضحكتها ونظرة عينيها لحظة تنتشي، وأحب جرأتها الخجلة، وعاشا معاً ثلاث سنوات خالية من الأزمات، وبوغت ذات صباح بموتها الفجائي وهي التي لم تمرض يوماً، وعوّدته أن يصحو من نومه كل صباح على رائحة القهوة التي تحضرها إليه وهو لا يزال في سريره، ولكنه في ذلك الصباح استيقظ من نومه متأخراً، فوجد منيرة لا تزال بجواره غارقة في نوم عميق، فحاول إيقاظها، فلم تستيقظ، وقرر الطبيب أنها ماتت فجراً بالسكتة القلبية، فلم يبكِ منير وهي توضع في التابوت ويخرج التابوت من البيت، ولم يبكِ وهو يسير في الطرقات بخطى متباطئة وراء التابوت المحمول على الأكتاف، ولم يبكِ عندما كانت منيرة توارى تحت التراب، فلامه أهلها وأهله، واتهموه بالعقوق ونسيان الخبز والملح، فلم يحاول منير الدفاع عن نفسه، ونام وحده في السرير الذي تعوّدا أن يناما فيه، وزارته منيرة في المنام، ونصحته بألا

يحزن، فهي لن تفارقه، ولن تجعله يشعر بالحاجة إلى أحد، وزارته في ليلة أخرى، ونصحته بأن يقطع صلته بأحد أصدقائه، فقال لها مدهوشاً: «هذا أخ وليس مجرد صديق».

فأكدت له أن صديقه يتاجر سراً بالمخدرات، وسيعتقل قريباً ويسجن عشرات السنين، ويتعرض كل أصدقائه لمتاعب وخيمة، فسارع إلى اختلاق شجار مع صديقه أدى إلى قطيعة وعداء، وما إن مرت أسابيع حتى اختير صديقه وزيراً للداخلية، فكرّس جهده لخدمة مصالحه ومصالح أصدقائه، فنقم منير على منيرة ونصائحها، وعندما قرر أن يشتري بيتاً للاستثمار، نصحته منيرة بعدم شرائه بحجة أن الأسعار ستنخفض بعد أسابيع، فعدل عن شراء البيت، فإذا أسعار البيوت ترتفع أسعارها، فازدادت نقمته على منيرة ونصائحها، وزارته في المنام متجهمة الوجه، وطلبت إليه ألا ينصت لإلحاح أهله بأن يتزوج المرأة التي رشّحوها له، وقالت منيرة إن هذه المرأة ستجنن كل من يتزوجها، فلم يصغ إليها، وتزوج بتلك المرأة، فلم يجنّ، وسخر من منيرة، فغضبت، وكفّت عن زيارته، وتزوج امرأة ثانية، فثالثة، فرابعة، وقال لأصدقائه المستغربين: «من يتزوج أربعاً يستريح لأنهن يتنافسن على تدليله وترفيهه، ويختلفن فيما بينهن، ويزداد حرصهن على كسب ودّه».

وما قاله كان صحيحاً، وقد رأى بعينيه زوجاته الأربع مختلفات، وكل واحدة تكره الأخرى، فسرّ بنجاح مخططه غير عالم بأن اختلافهن هو مجرد تمثيل لإرضائه بعد أن تبين لهن أن حياتهن رائعة لا ينغصها سوى وجوده، ولو اختفى لأصبحن في جنة، فتبارين في طهو الطعام الدسم وصنع الحلويات التي تكثر فيها القشدة غير المغشوشة والسمن الأصلي، فكان منير يأكل بشراهة

كأن كل وجبة هي آخر وجبة، وكانت كل زوجة تتفنن في إغوائه ليلاً ونهاراً، ولا تتركه إلاّ بعد أن يتحول شيئاً يصلح للرمي في القمامة، فتبدل، وصار بديناً، وأصيب بكل الأمراض المعروفة التي أدت إلى أن يغادر البيت في تابوت يتقدمه رجل ملتح يصيح: «يا سامعين الصوت.. سامحوا المرحوم منير بن سعيد بن خديجة..».

ولم تتفرق زوجاته بعد وفاته، وعشن معاً في بيت واحد، فقد ترك لهن المرحوم ما جعلهن غير محتاجات إلى أحد، وكانت الزوجات الأربع يحرصن كل أسبوع على أن يزرن قبره مرتديات الثياب السود، فيغضب منير معتقداً أن زيارتهن له لا سبب لها سوى التأكد من أنه لا يزال ميتاً.

21

كان صيف الزقاق حاراً، وأرغمت شمس الظهيرة سكانه على الاختباء في غرف بيوتهم الباردة، وأقفر الزقاق من المارة كأن ثمة حظر تجول سرياً، ولكن ليلى البالغة من العمر عشر سنوات، والتي كانت ترتدي ثوباً أزرق قصيراً ظلت تقف في الزقاق قرب باب بيتها ملصقة الظهر بحائطه، وقد رأى أبوها العائد إلى البيت رجلاً عجوزاً مشعث الشعر يلتصق بابنته، فصاح به غاضباً، واستل سكينه الكبيرة التي كان يستخدمها في دكانه لذبح الخراف وتقطيع لحمها، وهمّ بالهجوم عليه، فسارع العجوز إلى القول له وهو يلهث بصوت متحشرج أنه كان مجرد ضائع يسأل عن الطريق، واضطر إلى الاقتراب منها حتى تتمكن من سماع صوته المنخفض، فلم يبالِ الأب بما سمعه، وتابع تقدمه نحو العجوز، فصاحت ليلى مرعوبة تحذر أباها من الاقتراب من العجوز لأنه يخفي في ثيابه حية تتحرك، ففقد الأب صوابه، وانقض على العجوز بينما كانت سكينه المشهرة ترتجف مغمورة بمزيج من البهجة والنشوة والهلع مترقبة بلهفة ما سيتاح لها من جديد غير

مألوف مختلف عن أعناق الخراف والدجاج، واندفعت نحو العجوز، وغاص نصلها العريض المرهف في اللحم والدم، واستغربت السكين ألاّ يهتف صاحبها كعادته: «الله أكبر!».

وتعاون رجال الزقاق بغير ضجيج أو كلام، ووضعوا الجثة والرأس في كيس من القماش المتين، ونقلوه إلى دكان الأب الذي فرم اللحم وطحن العظم، وصنع منهما سجقاً أطعمه للكلاب والقطط الشاردة الكثيرة العدد، وتعاونت النساء على غسل أرضية الزقاق بالماء الساخن والصابون غسلاً أتاح لسكان الزقاق التباهي طويلاً بنظافته وكلابه وقططه السمان.

22

تزوج عبد الستار وليلى في عرس صاخب شارك فيه كل أهل الحارة، ولكن العريس لم يقيض له أن يكمل شهر العسل، واعتقل بعد ثلاثة أيام اعتقالاً مؤقتاً، وخرج من السجن بعد عشرة أعوام، فبادر أهل الحارة رجالاً ونساءً وأطفالاً إلى انتظاره خارج السجن، وما إن لمحوه خارجاً من بوابة السجن حتى زغردت النساء وتصايح الأولاد وهرع الرجال إليه يعانقونه بحرارة ويهنئونه بكلمات نابعة من القلب، فشكرهم بصوت متهدج لا يكاد يسمع من كثرة الضجيج، ولكن كل الضجيج لم يعد له أي وجود عندما بحث بنظراته عن زوجته، ورآها تقف محاطة بخمسة أطفال متفاوتي الأعمار والأشكال والأحجام سمان مهزولين قصار طوال شقر سمر بيض، ورأته ليلى ينظر إليها، فلوحت له بيدها بينما كانت يدها الأخرى تمسح دموعها، فاقترب منها خافق القلب، واندفعت يداه نحو يدها الطرية الصغيرة التي كانت تمسح الدموع، وامسكتا بها بقوة كأنها يد تنتشل موشكاً على الغرق.

وحدّق عبد الستار إلى ليلى مبهوراً، فهي قد ازدادت جمالاً

وشباباً، وتبدو أصغر بكثير من عمرها الحقيقي، فتصايح أهل الحارة متصنعين الاستنكار، فضحك عبد الستار، وقال لهم: «إنها حلالي! أنسيتم أنها زوجتي على سنّة الله ورسوله؟».

فتعالت ضوضاؤهم الممتزجة بضحكاتهم، ورافقوه حتى أوصلوه إلى بيته، وهناك جلس في باحة البيت تحت أغصان شجرة نارنج، وراح يحتسي القهوة على مهل، وفجأة أشار بسبابته إلى الأطفال الخمسة الذين كانوا يقفون على مبعدة منه ويرمقونه بنظرات بعضها عدائي وبعضها الآخر خجل، وسأل زوجته: «من هؤلاء الأولاد؟ أولاد جيران أم أقارب؟».

فأفاضت زوجته فوراً في الثناء على أهل الحارة وشهامتهم ومروءتهم ونخوتهم، فهم قاموا بكل ما عليهم من واجب تجاه زوجة وحيدة فقدت عائلها، ووفروا لها كل ما تحتاج إليه، فقاطعها عبد الستار متسائلاً ثانية عن الأطفال، فنظرت إليه بدهشة واستغراب، وقالت له: «ما هذا السؤال؟! ألم تعرف أولادك؟ مسكين! صحيح أن السجن يغيّر ويضعف الذاكرة».

فقال عبد الستار لليلى بصوت متسائل: «هل كنت حبلى عندما اعتقلت؟».

قالت ليلى: «لا لم أكن حبلى. يا حسرة! شهر العسل كان كما تذكر ثلاث ليالٍ فقط، وكنا خجلين».

وتنهدت ليلى، وقالت: «ولكن حارتنا لا مثيل لها. أتعرف الأستاذ سعيد.. المعلم في المدرسة الابتدائية؟ هو الذي تبرع بمساعدتي على الولد الأول. الرجال من أمثاله نادرون. لا أستطيع أن أصف لك التعب الذي تعبه».

قال عبد الستار: «والولد الثاني؟».

قالت ليلى: «انظر إليه تعرف فوراً من ساعدني. ليس في حارتنا سوى رجل واحد أشقر الشعر هو عبد الحفيظ مختار الحارة، وقد ساعدني على الرغم من أنه ملتزم بزوجتين لا تشبعان».

قال عبد الستار: «والولد الثالث؟».

قالت ليلى: «من ساعدني تعرفه وتوافقني على اختياري له.. أخلاق وتقوى وصوم وحج وصلاة في أوقاتها، ولعل ولدنا يرث بعض خصاله».

قال عبد الستار: «والولد الرابع؟».

قالت ليلى: «أنا متأكدة أن المساعدة جاءت من دكتور الحارة، وأذكر أن كل الأدوية لي وللأولاد كان يؤمنها مجاناً».

قال عبد عبد الستار: «والولد الخامس؟».

قالت ليلى: «أنت وأنا لا نحب الكذب. الولد الخامس ضيّعني من كثرة المساعدات التي انهمرت عليَّ من عشرة شبان أو أكثر، وكل شاب أطول من النخلة وأعرض من الباب».

فتخلّت أصابع عبد الستار عن فنجان القهوة الذي سقط على الأرض، وتحطم، وقعد عبد الستار القرفصاء لصق حائط من حجر أسود خشن، ورغب في البكاء مثلما كان يبكي وهو يضرب بقسوة في السجن، ولكن عينيه ظلتا جافتين.

23

استنشق سالم رائحة شعرها، وقال عنها إنها أجمل من رائحة العشب، فضحكت منى ضحكة غامضة، وقالت له إن العشب مفضل لدى الخراف والماعز والبقر، وأغرته بالنوم قائلة إن بقاءه مفتوح العينين ليل نهار ليراقبها أمر ضار ومحيّر، فلم يستطع مقاومة إغرائها، ونام كما ينام طفل على ركبتي أمه، فلم تتركه منى، ولاحقته وهو غارق في النوم لتقف على شرفة قصر تطل على آلاف الرجال، وخاطبت الرجال بصوت يشبه الماء: «ستنالون اليوم بعض ما كنتم ترغبون فيه ولا تجرؤون على المطالبة به علانية».

وابتدأت منى بالتعري بأسلوب يجعل كل رجل يوقن أنها تتعرى له وحده، فسألها سالم بصوت موبخ: «ألا تخجلين مما تفعلين؟».

فضحكت منى، وأجابت أنها لا تفعل إلاّ ما يجبر الرجال المتباهين بشواربهم على أن تحمّر وجوههم قليلاً، فاحمر وجه سالم غضباً، واستغرب أن يشعر بالجوع وهو نائم، وقال لمنى متسائلاً: «ماذا طبخت اليوم؟».

فقالت له منى: «خدمة الجماهير أولاً ثم خدمة الزوج».

وفي تلك اللحظة، حطّ عصفور صغير على راحة يدها، وبحث عن حبوب تعوّد التقاطها بمنقاره، فأمسكت به أصابعها بحركة فجائية، وضغطت على عنقه، ولم تفلته إلاّ مخنوقاً، فصحا سالم من نومه مرعوباً ليجد منى نائمة بجواره مزيجاً من امرأة شهيّة وطفلة وديعة.

24

كانت قرية ظغبيت ذات جبال مكسوة بالثلج صيفاً وشتاءً وحقول ملأى بالشجر المثمر وهواء نقي منعش وينابيع كثيرة عصية على الإحصاء، يقصدها الراغبون في الراحة والاستجمام آتين من مدينة غير بعيدة، ولكن نساءها كن يتمنين أن تندثر ظغبيت حتى يتخلصن من رجالها الأجلاف، فالمرأة لا تستطيع أن تتمتم بتحية الصباح لزوجها إلاّ إذا أذن لها.

وحدث في ظغبيت ما لا يروى لأنه من المهين أن يروى، فكثيرة هي البيوت التي اقتحمها في آخر الليل رجل غريب قيل إنه راغب في السطو والاغتصاب معاً، ولكن كل أصحاب البيوت امتنعوا عن تقديم الشكاوى إلى مخفر الشرطة الذي يعج بالمتثائبين، ولم يتسرب منهم أي نبأ مفصّل عن نجاح اللص أو إخفاقه، ولكن لوحظ في ظغبيت أن نساءها صرن مهملات لأوامر رجالهن ولا يفعلن إلاّ ما يحلو لهن.

وكان يعيش في ظغبيت رجل عجوز لم يعرف طوال حياته حتى تقاعده مهنة غير الجندية، وكان يعيش وحده في بيت كبير،

كثير المداخل، صعب الحراسة، وقد خطر بباله أن بيته سيغري اللص باقتحامه، فإذا كان ليس لديه ما يصلح للاغتصاب، فلديه ما يصلح للسرقة، وصار لا ينام في الليل، ويظل ساهراً مع بندقيته منتظراً اللص، ولم يطل انتظاره، ووجد نفسه يباغت اللص من حيث لا يدري، ويلصق فوهة البندقية برقبته، ويأمره بألا يتحرك أية حركة، فأطاع اللص طاعة تخلو من التذمر، وانتزع العجوزُ من اللص خنجراً ومسدساً، وأوثقه بحبال غليظة متينة أعدها لمثل تلك اللحظة، وجلس قبالته يدخن سيجارة، وسأله عما فعل في ظغبيت، فأجاب اللص فوراً وبحماسة، فإذا ما قاله مختلف عن الشائع، فقد زعم متباهياً أن كل بيت دخله اغتصب الرجل أمام زوجته، وقال للعجوز: «اسأل أية امرأة عني تقل لك إني كنت أعاملها باحترام كأنها أختي أو جدتي».

وقال اللص بافتخار إن ثمة قلائل من رجال ظغبيت لم يغتصبهم بعد، ولا شيء ينجيهم منه.

وضحك اللص، وقال للعجوز: «لا تغشك الشوارب الكبيرة والحكي الكبير، فكثيرون لم يخجلوا من زوجاتهم وطلبوا مني أن أغتصبهم ثانية».

احتار العجوز ماذا يفعل، فإذا سلّم اللص لرجال الشرطة، وسجلوا اعترافاته، فستنفجر فضيحة تحرق الأخضرين، وليس من المعقول أن يبقيه سجيناً في بيته إلى ما لا نهاية، وسارع العجوز إلى استدعاء الرجال الذين زعم اللص أنه اغتصبهم، وسألهم المشورة، فلم يتفوهوا بكلمة، وانتضوا سكاكينهم، وانقضوا على اللص والعجوز، ومزّقوا جسديهما، واختفت جثتاهما.

وما إن مرت أسابيع حتى عادت نساء ظغبيت ينصتن مرتجفات

لأوامر أزواجهن، ويبادرن إلى تنفيذها بأقصى سرعة متمنيات أن تندثر ظغبيت وتختفي إلى الأبد تحت الثلوج.

بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. صحيح أن لإبليس أتباعاً يسعون في الأرض ويعيثون فساداً».

وبعد أيام قليلة، كان الشيخ صالح يمشي متوكئاً على عصاه في زقاق متعرج يوصل إلى بيته، فاعترض طريقه أبو العلا أشرس رجل في الحي، وقبّل يده باحترام وخشوع، وتوسل إليه أن يدعو له حتى يمنّ الله عليه بالهداية وترك حياة الشقاوة، فقال له الشيخ صالح بنزق: «وكيف أدعو لك وقلبي ليس فيه إلاّ الهم والغم والغضب؟ الدعاء لا يستجاب إلاّ إذا نبع من قلب صافٍ».

فقال أبو العلا: «لا عاش من يغضب سيدنا الشيخ. خبرني باسمه، واقرأ الفاتحة على روحه».

فاستند الشيخ صالح بظهره إلى حائط بيت كأنه يمنع جسمه من السقوط أرضاً، وقال بأسى ومرارة: «يشهد الله يا ولدي أني تعودت طوال حياتي أن أحب كل الناس، لا أفرق بين غني وفقير، ولكن أفعال عثمان المدان المخالفة لسنّة الله ورسوله أغضبتني وجعلتني أكره ذلك الفاسق الفاجر الداعر الكافر».

فدهش أبو العلا، وقال: «ولكن معلوماتي عنه أنه رجل يصلي ويصوم ويزكي، وحج مرتين».

فضحك الشيخ صالح بهزء، وقال: «كأنك يا ولدي نسيت أن إبليس نفسه كان ملاكاً».

وتنهد الشيخ صالح بأسى، وقال: «من واجب كل مؤمن محاربة الكفرة، وكل مؤمن يخلص الدنيا من كافر يدخل الجنة بغير حساب».

فقبل أبو العلا يد الشيخ ثانية، وقال له بصوت خافت متهدج: «إننا بإذن الله سندخل الجنة».

ولم تمضِ سوى أيام حتى عثر على عثمان المدان مقتولاً ممزق الجسم بطعنات كثيرة من خنجر أو سكين، وأفاد آخر من رأوه حياً أنه صلى صلاة العشاء في مسجد الحي خلف الشيخ صالح المندلي، ثم غادره قاصداً بيته القريب، فلم يتح له الوصول إلى بيته، وبكت زوجته نائلة حتى تورمت عيناها، واكتست بثياب الحداد، وأقسمت أنها لن تخلعها ما دامت حية، فأشاعت فريال زوجة بكري أن نائلة قد لبست الثياب السود حزناً على قطتها التي دهستها سيارة.

فضحكت فريال بلؤم، وقالت: «وأربع مرات في ليلة الجمعة».

وصمتت لحظات ترقب زوجها العابس الوجه، ثم قالت له: «أتعلم بماذا نصحتني؟ نصحتني بتطليقك، وأخبرتني أن زوجها يقول إن امرأة مثلي يحق لها شرعاً أن تخون زوجها، وخيانتها له حلال».

فازداد عبوس بكري، وشعر منذ تلك اللحظة بكره عميق لعثمان، وابتدأت الخلافات تدبّ بينه وبين عثمان في اليوم التالي، وتكاثرت إلى حد أنهما باعا البقالية التي يملكانها، واقتسما ثمنها بالتساوي، وافترقا، ولكن بكري ظل ناقماً على شريكه السابق، وحكى عنه ما يمسه ويمس أسرته وآباءه وأجداده، فكان عثمان يبلغه كل ما يقول عنه شريكه السابق، فلا يبالي به، ويكتفي بالقول بصوت متسامح: «لا حول ولا قوة إلاّ باللّه».

فتتزايد نقمة بكري، ويصمم على متابعة الانتقام من شريكه، وقد لاحظ يوماً أن حملته على شريكه السابق لا تقابل بالتصديق الجديرة به، وتحتاج إلى مساندة من أشخاص مؤثرين موثوقين، فزار الشيخ صالح المندلي في بيته بحجة إعطائه زكاته السنوية ليوزعها الشيخ على العائلات المحتاجة، وكان الشيخ إمام مسجد الحي، وله تلاميذ وأتباع ومريدون، وأقواله وأحكامه لا تناقش، وقد تسلم الشيخ الزكاة من بكري، وقال له مبشراً: «ثوابك عند الله عظيم».

فقال بكري بتواضع: «لا نطلب إلاّ عفوه ورحمته».

ونظر إلى الأرض بضيق ووجوم، فسأله الشيخ عما به، فقال بكري بصوت مرتعش: «أنا رجل لا أحب النميمة، ولكني في

الوقت نفسه لا أطيق أن تشوه سمعة الرجال الصالحين أمثالك. أكثر الله من أمثالك».

وأخبر الشيخ أن شريكه السابق عثمان المدان يشيع عنه أنه يؤم المصلين وهو غير متوضىء، فقال الشيخ بحنق: «كذاب ابن كذاب. مرة واحدة فعلتها وسهواً، وجلَّ من لا يسهى».

فروى بكري للشيخ كيف أن شريكه السابق يأكل لحم الخنزير، فصاح الشيخ باستنكار واشمئزاز: «ماذا أسمع؟ أمسلم ويأكل لحم الخنزير؟».

فأكد بكري للشيخ أن شريكه السابق لا يكتفي بأكل لحم الخنزير وحده بل يجبر زوجته على أكله حتى باتت تستسيغه وتطلبه، فتضاعف استنكار الشيخ، وكان بكري والشيخ وحدهما في الغرفة، ولكن بكري نظر إلى ما حوله بحذر، وهمس للشيخ بصوت مضطرب: «ما سأقوله لا يصدق، وأخجل من ذكره. إنه يقول عنك إنك تمارس العادة السرية».

فقال الشيخ: «كذاب وألف كذاب. كيف أفعلها وزوجتي مثل أختي منذ سنتين وخمسة أشهر وثلاثة أيام؟».

فأمسك بكري بيد الشيخ كأنه يشجعه، وقال له: «أين الثرى من الثريا؟ أنت يا سيدنا أكبر منه، فلا تهتم بما يقوله، فهو مسكين لا يحلل ولا يحرم، لا يكتفي بزوجته وأمها بل يلاحق الصبيان، واكتشفت هذا الأمر مصادفة، وخشيت على سمعتي، وأنهيت شركتي معه بخسارة».

فازداد وجه الشيخ تجعداً، وقال بصوت مرتجف حانق: «أعوذ

25

كانت بهية امرأة جميلة مطوقة بجيران ثرثارين مفتوحي العيون ليلاً ونهاراً، ويروون عن بهية وأطفالها الأربعة المجهولي الآباء وقائع فاحشة تشيّب ثوراً فاحم السواد، ودفعت جاراً ملتحياً إلى أن يقترح بنزق أن ترجم بهية بالحجارة حتى تموت، ولم يعمل باقتراحه لأن شوارعهم كانت خالية من الحجارة، وجلب الحجارة من أماكن تواجدها يتطلب جهداً ووقتاً ومالاً، وكانت بهية تسمع كل ما يقال عليها، وتتقبله رابطة الجأش، هادئة، صامتة، وتكتفي بالابتسام الواثق المرح حريصة على الابتعاد عن هيجان الغضب، ولم تحاول مرة واحدة الدفاع عن نفسها والتكلّم عن زيجاتها الشرعية الخفية التي قد لا تصدق أحياناً، فأول زوج لها كان جنيّاً مشركاً ذا سحر لا يقاوم، وأحبها منذ النظرة الأولى، ولكنها أبت الزواج بمن هو غير مسلم، فاكتأب الجنّي كآبة الخاسر الخائب، وناشد بهية أن تكلّمه عن الإسلام، وسمع منها كلاماً حاراً مؤثراً جعل قلبه يرتعد ويخشع، فأعلن فوراً إسلامه، ونطق صادقاً بالشهادتين، فتزوجته ليصبح أباً لابنها الأول، واختتم زواجهما

بنهاية غير سارة إذ شارك زوجها في انقلاب عسكري لم ينجح وقُبض عليه وأعدم بغير محاكمة، فحزنت بهية، وارتدت ثياب الحداد، فلمحها آنذاك الجني الذي سيصير زوجها الثاني، وأعجب بها وهي في الثياب السود، وطلب منها ما لا يليق بامرأة فاضلة، فغضبت عليه، وجنّ جنونها، وطردته شرّ طرد، ولكن الجنّي ازداد إعجاباً بها إذ بدت أجمل وهي غضبى، وصبر سنوات حتى وافقت على الزواج به، وكان أباً لابنها الثاني وابنها الثالث، ولم يتح له أن يصبح أباً لابنها الرابع لأن سيارة طائشة يقودها جندي مخمور دهسته وحوّلته لحماً ممزقاً وعظماً مسحوقاً.

وتزوجت بهية جنّيا ثالثاً أحبته، ولكنها لم تنجب منه أيّ ابن لأنها كرهت فقره وكسله ورائحة فمه، وزغردت عندما طلّقها.

وتزوجت بهية جنّياً رابعاً طمعاً في ما يملكه، وأصبح أباً لابنها الرابع، ولكنها عندما علمت أن ثروته الطائلة تكونت من الاختلاس والرشوة سارعت إلى تطليقه لكونها تمقت المال الحرام، وتأبى يدها أن تمسه إلاّ بعد ارتداء قفاز سميك.

وما حدث لبهية أقنعها بأن لا حظ لها في الأزواج، ولا مقعد لها في حدائق العشاق والمحبين، وقررت ألاّ تتزوج، ورفضت أشهى الرجال من الجنّ والإنس، وكرّست حياتها بمجملها لتربية أبنائها الأربعة حتى صاروا رجالاً مهابين ومن أصحاب المال والجاه والنفوذ، فتنبه آنذاك جيران بهية إلى أنها امرأة فاضلة جديرة بالاحترام، وسعوا إليها متنافسين على طلب صداقتها، وباتت كل النساء ينشدن نصحها كلما ألمت بهن أزمة لا حلَّ لها، ولم تتبدل بهية بعد وفاتها، فكل امرأة تقصد ضريحها مشتكية غلظة زوجها

بيضاء، واندسّ بين المتشاجرات محاولاً تهدئتهن، ففاجأته ضربة عصا غليظة على جبهته، فترنح، وارتمى على الأرض يئن أنين امرأة حامل آن أوان ولادتها، ولكن الحجارة المتساقطة فيما حوله أجبرته على أن يستجمع قواه ويزحف نحو الحفرة المعدّة للميت ويختبىء فيها، فدهش حفار القبور، ولم يصدق ما يراه، وهرع إلى خارج المقبرة آملاً أن يصادف شرطياً أو طبيباً أو سيارة إسعاف. أما أزواج المتشاجرات، فقد اكتفوا بالحملقة إلى النعش الجاثم على الأرض مغتاظين ممن كان يخدعهم ويتظاهر أنه عجوز لا يستطيع المشي خطوة من غير عكاز، واقتربوا من نعشه، ولكزوه بأحذيتهم بشماتة، فصرخ أكرم الأقرش المسجى في نعشه مطالباً بأن يدفن بسرعة، فضاعت صرخته في ضجيج المتشاجرات، ولم يسمعها أحد.

27

حاول بشير أن يصيح منادياً زوجته، فكان صياحه حشرجات واهنة متقطعة انبعثت من فم متهدل الشفتين، وضاقت غرفته، ونفد هواؤها، فتهاوى على الأرض، وفي تلك اللحظة، دخلت الغرفة زوجته، فبوغتت به مستلقياً على الأرض، وصاحت به مستنكرة: «ما هذا الكسل؟ إذا كنت تريد الاستراحة، فتمدد على السرير».

فلم تسمع منه أي رد، وقالت له: «نسيت أنك تتضايق من كلامي، ومن حقك أن تتضايق لأنك لست الذي يغسل الثياب ويكويها».

وخلعت ثوبها بحركة مفاجئة، ووقفت قبالة مرآة خزانة الثياب، وتفحصت جسدها بإعجاب وفرح، وقالت لبشير: «انظر انظر كيف أن تماريني الرياضية التي تسخر منها جعلتني ذات خصر أجمل من خصور البنات الصغيرات».

وتمطت وهي تنظر إلى بشير مترقبة ثم تمتمت متأففة: «في الليل نعسان وفي النهار تعبان».

وبادرت إلى ارتداء ثوب أزرق اللون، وقالت لبشير: «ما رأيك في هذا الثوب؟ ألا ترى أن لونه الأزرق يناسب بشرتي البيضاء وشعري الأسود؟».

فلم تسمع منه أي جواب، وقالت له بصوت ساخر: «لا تؤاخذني. نسيت أنك لا تطيق أن تراني أنيقة، وتتمنى أن أخرج من البيت بثياب لا تلبسها الشحاذة».

فلم تسمع منه أي تعليق، وقالت له وهي تسير نحو باب الغرفة: «إذا تلفنت أمي وسألت عني، فقل لها إني سأكون عندها بعد ساعة».

فلم تسمع منه أي جواب، وغادرت الغرفة خائبة حانقة.

28

لم تترك خديجة المحّار أحداً تعرفه إلاّ وأقسمت أمامه أن ابنها إسماعيل لن يتزوج نوال الرتا ما دام في صدرها نفس واحد، فلا يليق بمن كان مثل ابنها أن يتزوج واحدة بلا حسب ونسب ناصع، تحنّ على الجميع، وتستدرج الصغار وتفسدهم، أمها بنصف عقل وأبوها أجير نجار، وكانت خديجة تعتقد إن إسماعيل لا يخالفها، ويحب ما تحب، ويكره ما تكره، ولم تصدق يوم هجر البيت الذي ولد فيه حيث العزّ والدلال والرفاهية، وتزوج نوال، وعاش معها في بيت أصغر من علبة السردين، فلبست خديجة أقتم ما في خزانتها من ثياب، وطلبت من كل الذين تعرفهم أن يعزوها بوفاة ابنها الذي اختطفه الموت وهو في ريعان الشباب، فإذا ما فعلته كان نذيراً بما سيحدث، فإسماعيل لم ينهِ شهر عسله، ونقل إلى أحد المستشفيات بعد أن دهسته سيارة يقودها سكران، ولم يتح لأمه رؤيته إلاّ وهو جثة هامدة عاجزة عن الرد على لومها أو عتابها، وهناك في ممر كئيب من ممرات المستشفى تلاقت الأم بنوال الباكية وجهاً لوجه، فتفحصتها بنظرات صارمة عدائية، وفوجئت بأن ما

ينهمر من عينيها كان دموعاً غير كاذبة تفيض من قلب مجروح لن يشفى جرحه، وبدت لها في تلك اللحظات مخلوقاً صغيراً جميلاً ضعيفاً لا يقوى على الوقوف بثبات على قدميه، ويرتعد كمحتضر محكوم عليه بأن يتعذب من دون أن يأتيه أي موت، فاندفعت إليها وعانقتها كأنها تعانق إسماعيل، وتركتها تكمل بكاءها على صدرها، وأقسمت عليها بعد الجنازة أن تأتي معها إلى بيتها وتنام الليلة في غرفة إسماعيل التي لا تعرفها، ولكن تلك الليلة تبعتها ليالٍ أخرى، وعاشت نوال في بيت حماتها التي كانت لا تكف عن الترديد بصوت خاشع: «ما أكرم هذا الرب! يأخذ بيد ويعطي باليد الأخرى».

ولم يكن يضايق نوال في حياتها الجديدة سوى إلحاح حماتها عليها كل ليلة بأن تتزوج ثانية، وتستعرض مزايا من ترشحهم للزواج بها، ثم تطلب منها في نهاية كل سهرة أن تحكي لها عن إسماعيل، وتنصت مدهوشة كأنها لا تعرفه.

29

اشتهر رضا جلال بين سكان شارع المأمون بأنه رجل غامض له أخوة من الجن، يسارعون إلى نجدته كلما وقع في ضيق، وساعد البيت الذي يسكنه على ازدياد شهرته، فكل البيوت في شارع المأمون طوابق في أبنية حديثة عالية مبنية من حجر وإسمنت وحديد، ولكن بيت رضا جلال كان عتيقاً من خشب وطين، واستغرب كثيرون تجاهل الجهات الرسمية المسؤولة عن تنظيم الشوارع لهذا البيت، ولم تأمر بهدمه وإزالته وتشييد بناية حديثة بدلاً منه، ولم يجدوا تفسيراً مقنعاً غير أن لذلك البيت رباً يحميه ويحافظ على بقائه واستمراره.

وكان رضا جلال قد ورث بيته عن والديه بعد وفاتهما، ويسكن فيه وحده على الرغم من أنه كثير الغرف، ولكن البيت كان يتبدل في الليل، ويتحول شعلة من الأنوار، وتنبعث منه ضحكات رجال ونساء وضوضاء أطفال يلعبون، فيبسمل المارة في شارع المأمون، ويركضون إلى بيوتهم ويدخلونها فرحين بأنها لا تزال موجودة ولم تختف.

وحمقه، تعود إلى بيتها لتباغت بأن زوجها تغيّر، وبات أرق من غمائم الصيف، ويطيع بفرح كل ما يؤمر به.

26

سارت في الشوارع جنازة أكرم الأقرش الذي مات من دون أن يتزوج، ولا أقارب له يرثون ما خلّف من ثروات طائلة، ولم يترك أية وصيّة، وكانت المشيّعات السائرات وراء نعشه أكثر حزناً من المشيّعين، وقد ذرفن الدموع السخيّة نادبات مولولات، ومزقن ملاءاتهن السود، وسرن بغير حياء حاسرات الرؤوس، وعندما وصلت الجنازة إلى المقبرة، تنازعت المشيّعات إذ ادعت كل واحدة أن الرجل الذي مات لم يتزوجها لأنها كانت متزوجة من غيره، ولكنه هو وحده الأب الحقيقي لكل ما لديها من صبيان وبنات، وسرعان ما تضاءل لجوء المتنازعات إلى الكلمات لتحلّ محله مشاجرة عنيفة تبودلت فيها الصفعات واللطمات والركلات، وانتزع عدد من النساء أغصاناً غليظة من أشجار المقبرة، واستخدمنها عصياً انهالت بالضرب الموجع على الرؤوس والظهور، فبادرت النساء الأخريات إلى جمع الحجارة من أرض المقبرة، وردت حجارتهن على حاملات العصي رداً قاسياً، وتناثرت على أرض المقبرة أجسام النساء المخضبات بالدم، فحوقل رجل ذو لحية

ولم يتمكن واحد من سكان شارع المأمون أن يزعم يوماً أنه لمح رضا جلال يشتري فاكهة، فاتهمه بعضهم بالبخل الشديد، وأشاع بعضهم الآخر بأن أخوته من الجن يجلبون إليه كل ليلة أشهى الفاكهة، فتجنبه الرجال أجمعون ما عدا صفوان المغربي الذي كان لا يفزع من الجن، وينفي وجودهم، وأقدم ذات يوم على التحرش برضا، ولطمه لطمة قوية طوّحت به أرضاً، وقال له: «هذه اللطمة ليست لك بل هي لإخوتك الجن».

فنهض رضا عن الأرض مترنحاً، فسارع بعض الرجال إلى التدخل، ومنعوا المشاجرة من الاستمرار، وما إن أتى الليل حتى دهم رجال الشرطة بيت صفوان المغربي، وفتشوه، وعثروا فيه على كمية كبيرة من المخدرات، فاعتقلوا صفوان المغربي، وحملوه إلى مخفرهم حيث انهالوا عليه بضرب متلاحق لا يعرف الرأفة بغية إجباره على الاعتراف بمصدر تلك المخدرات، ولكنه أبى الاعتراف، ومات في أثناء تعذيبه، فأشيع في شارع المأمون أن آخر شرطي ركل رأسه الركلة التي أزهقت روحه قال له: «هذه الركلة ليست مني بل هي من أخي رضا».

وكان رضا جلال عازباً، فقيل في شارع المأمون إنه لم يتزوج حتى الآن بسبب زواجه من جنية أنجبت له صبياً وبنتاً كانا من الجن كأمهما لا من الإنس كأبيهما، ولكن رضا باغت الجميع بزواجه من جميلة الحليم، فقال الرجال: «ولماذا الاستغراب؟ رضا رجل مسلم يحق له الزواج بأربع لا باثنتين فقط».

وكانت جميلة الحليم امرأة كثيرة الأزواج، كلما تزوجت رجلاً طلقته بعد أسبوع أو أسبوعين مشمئزة ساخرة من نقصان في رجولته، فأشفق كثيرون على رضا، وتوقعوا أن يحلّ به ما حلَّ بمن

كانوا أحسن منه، ولكن جميلة تبدلت، وأمست كالجارية المطيعة، يأمرها رضا بأن تموت فتموت، ويأمرها بأن تعيش فتعيش.

ولم تكتم جميلة عن جاراتها سر تبدلها، وحكت لهن أن زوجها يجثم فوقها بعد صلاة العشاء مباشرة، ولا يفارقها إلاّ حين يبدأ المؤذن أذان الفجر، فيتركها، ويهرع إلى الجامع ليكسب الثواب المضاعف لصلاة الجماعة، فنقلت الجارات فوراً ما سمعنه عن رضا جلال إلى أزواجهن مغتاظات متلمظات، فلم يصدق الرجال أن رضا النحيل الهزيل يمكن أن تصدر عنه مثل هذه الأفعال، واضطر المتشككون بوجود الجن إلى الإقرار بخطئهم، وصدقوا أن لرضا أخوة من الجن غير مرئيين يبادرون إلى نجدته كلما احتاج إلى نجدة، وأكثروا من المشي في الطرقات المظلمة والجلوس في المقابر والخرائب لعلهم يصادقون من يغيثهم ويجعلهم مرفوعي الرؤوس بين زوجاتهم.

30

كان مازن جالساً في غرفته غير عابىء بالليل الحار الذي يجعله يتصبب عرقاً، يتابع بحماسة مباراة كرة قدم تنقلها مباشرة إحدى المحطات التلفزيونية، فدخلت أمه عليه، وأطفأت جهاز التلفزيون من دون أن تبالي بصياحه المحتج، وأخبرته بصوت مرهق أنها ملّت الكذب، فهي ليست أمه بل هي أخته، وعمرها يزيد عن عمره خمس سنوات، وأبوه الذي لا يتذكره هو الذي طلب منها وهو يحتضر أن لا تجعل أخاها محتاجاً إلى أم، فحزن مازن لأنه خسر أماً حنوناً، وفرح لأنه ربح أختاً كبيرة، وقال لها: «هل تعرفين أني كنت دائماً أتعجب من أن أمي تكاد تماثلني في العمر، ولا أجد تفسيراً، وأقول إن الله قدير على كل شيء؟».

وشعر مازن أن دمه يغلي في شرايينه، وجسده متوتر متلهف على كثير من الماء، فهرع إلى الحمام، ونزع ثيابه، ووقف تحت دوش يتدفق الماء منه قوياً، غزيراً، فلحقته أخته لتخبره أنها ملّت الكذب، فهي ليست أخته بل هي مجرد فتاة يتيمة غريبة تربت معه، ورحبت بالاستسلام للماء.

31

احتفلت مها بعيد ميلادها الخمسين، ورأت بعد أسابيع الشاب الذي عيّنه زوجها سائقاً جديداً لسيارته، فتبرمت من سهوها وأخطائه المحرجة، وبادرت إلى الاحتفال بعيد ميلادها الثلاثين، فتهامست صديقاتها أن مها ستحتفل في العام القادم بعيد ميلادها التاسع والعشرين، وأهداها زوجها معطف فرو أصلي، فسألت سائق سيارته: «ماذا تهدي زوجتك في عيد ميلادها؟».

فبدا على السائق كمن فوجىء بالسؤال، ولكنه أجاب فوراً: «المسكينة التي سأتزوجها لن تحتفل بعيد ميلادها لأنها ستكون غير عارفة باليوم الذي ولدت فيه».

وأخبرها زوجها أنه سيسافر بسبب أعمال ضرورية لا تحتمل التأجيل، وابتهج وهو يراها تستقبل نبأ سفره بوجوم واكتئاب، وتقول له إنها ستهجر سيارتها طوال مدة غيابه، وستستخدم سيارته حتى تتذكره دائماً، وعندما عاد من سفره، سألها ما إذا كانت قد استخدمت سيارته، فتمطت بتكاسل، وقالت له: «مرتين في اليوم

أو أكثر، وسائقك يعرف البلد جيداً، ويعرف أقصر الطرق وأجملها».

واقترحت عليه أن يدفع له بسخاء لقاء عمله ساعات إضافية كثيرة، ولكن السائق استقال من عمله استقالة غير معللة عندما بلغه أن رب عمله ينوي السفر ثانية، وحلَّ محله سائق آخر مختلف، حريص على صحته، لا يبتلع اللقمة إلاّ بعد مضغاً متأنياً يرغمها على التوسل إليه أن يسرع في التهامها.

32

كان درويش رجلاً لا يتقن أي عمل في الحياة غير تعليم الصغار القراءة والكتابة، ولكنه كان يكره مهنته ويكره الصغار، ويراهم مجرد كذابين يملكون قدراً من الخبث يمكنهم من الظهور في هيئة الأبرياء، وقد أحب راقصة كان يتلعثم أمامها كأنه طفل يحاول أن ينطق كلماته الأولى، ويزداد حباً لها حين يرى خجلها لحظة تظهر أمام الناس مرتدية ثيابها، ويستنجد ببعض أصدقائه الساخرين منه خفية من دون أن يدري، فيتبارون في تقديم نصائحهم الغزيرة، وكانت إحداها هي أن المرأة تحب أن تُهدى ورداً، ففكر درويش في كلام أصدقائه، ولم يعجب به، وأهدى الراقصة مسدساً من أحدث طراز، فأمسكت الراقصة بالمسدس، وتأملته صامتة ثم قالت فجأة لدرويش: «هل تعرف ماذا سأفعل لو كنت أعرف استخدام المسدس؟».

فحرّك رأسه بالنفي، فقالت له: «سأطلق النار عليك حتى تستريح وأستريح».

فحكى لأصدقائه ما جرى له، فسارعوا إلى تنبيهه إلى أن

حرصها على راحته دليل على أنها تحبه وتخجل من التصريح به، ونصحوه بأن المرأة تحب الرجل القوي العنيف، وينبغي له أن يثبت لها أنه قوي عنيف، وما إن رأى درويش الراقصة في الملهى الذي تعمل فيه حتى بادر إلى لطمها بغير سبب، وخرج من الملهى مدمى الرأس مضروباً بحذاء ذي كعب طويل مدبب، وحكى لأصدقائه مشتكياً، فدهشوا من غباوته، فهي تحبه إلى حد أنها ضحت في سبيله بإتلاف حذاء غالي الثمن، وشجعوه على الاستمرار في ملاحقتها مذكرين أن المرأة تحب الرجل الشريف الذي يرغب في الزواج وإنشاء أسرة، فعمل درويش بنصح أصدقائه، وألحّ على الراقصة بالزواج به، فضجرت منه، ووافقت على الزواج به، وأغرته بهجر مهنة تعليم الصغار والانتقال إلى مهنة أخرى لا مخاطر لها، ورأس مالها صغير، وأرباحها مضمونة.

33

جنّ الفتى الصغير السن عندما سمع الرجال الأربعة يشتمون حارته، وانتضى سكينه، وهجم عليهم، وسقط بعد لحظات على الأرض، ونظر إليه أحد الرجال الأربعة، وقال لأصدقائه ضاحكاً: «انظروا. أحلى من النسوان. غلطنا، وكان علينا أن لا نطعنه بخناجرنا».

وسار كل أهل الحارة في جنازة الفتى المقتول الرجال والنساء والأطفال، وعندما وضع نعشه على أرض المقبرة وبالقرب من حفرة القبر، اشتد العويل والنواح، وتعالت الولاويل، ولكن عائشة الغياش لم تبكِ أو تولول إنما ركّزت اهتمامها خفية على ذلك الرجل الذي انتهز تزاحم المشيعين والمشيعات فيما حولها، ووقف خلفها، والتصق بظهرها، وأحست بأن التصاقه بها بدأ يؤثر فيه، وجعله يتنفس بصعوبة، فتظاهرت أنها غير متنبهة له، ويأسرها فقط ما تراه، وانحنت إلى الأمام لحظة حملت الجثة من النعش، وظلت محنية، وتوقعت أن لا يكتفي الرجل بالتصاقه بها، ويسارع إلى اغتنام ما اندفع إليه على حين غرة، ولكنه جبن وتحوّل حائطاً، فلم

تستطع أن تخفي استياءها منه، والتفتت إليه بوجه حانق مستنكر، فإذا الرجل ليس إلاّ زوجها، فصاحت به بعد ارتباك خاطف وبصوت غاضب موبخ: «أهكذا إذن تتحرش ببنات الناس كأنك بلا زوجة؟».

فطلب إليها أن تخفض صوتها، فلم تبالِ به، وأكدت له أنها منذ أن وقف وراءها، عرفته فوراً من رائحته وصوت أنفاسه، وأرادت امتحانه، وسقط في الامتحان، فأقسم لها وهما يسيران نحو البيت أنه كان يمزح معها، وعرف أنها عرفته، فلم تقتنع، وبقيت عابسة الوجه، ثائرة، مهانة، وأجهشت بالبكاء عندما دخلا البيت، وهرعت إلى غرفة النوم، وارتمت على السرير، فلحق بها زوجها، وحاول تهدئتها، فاستسلمت له متذمرة من دون أن تحاول مسح دموعها، ووجدت نفسها تستعيد سيرها البطيء في الجنازة ووقوفها بين القبور والتصاق رجل بها، وانحنت متظاهرة أنها تحاول أن ترى جثة المقتول تحمل من النعش لتغيّب في القبر متوقعة أن يتمادى الرجل في جرأته، ولم يتح لها أن تلتفت إليه مستاءة، وكانت عيون المشيّعين والمشيّعات ملأى بالدموع، ولم ترَ غير المقتول ملفوفاً بكفنه يتوارى تحت التراب.

34

لم يخبر المدير الجديد للمستشفى الحكومي أحداً بجولته الليلية التفقدية، وبدأها بدخول إحدى الغرف، فوجد ممرضاً قد ألقى المريضة على الأرض وربض فوقها، وقال للمدير بلهجة مرحبة ومن دون أن يتوقف: «تفضل دكتور».

وكانت المريضة تغمض عينيها خجلاً أو مستمتعة أو مغشياً عليها، وقد لاحظ الممرض نظرات المدير المتعجبة، فقال له ومن دون أن يتوقف: «لا داعي إلى الاستغراب، فأنا لا أطيق السرير عكس كثيرين».

فخرج المدير من الغرفة مبهوتاً، ودخل غرفة أخرى واسعة تصطف فيها الأسرة المعدنية المطلية باللون الأبيض، وبوغت برؤية العديد من المرضى يطوقون شاباً في العشرين من عمره، وينهالون عليه باللطم والصفع، ويقولون له بين اللطمة والصفعة: «هيا احك اعترف».

وكان الشاب ينتحب غير خجل، ويترك دموعه تبلل وجهه،

ويقسم بصوت متوسل أنه مصاب بالسرطان وسيموت بعد أسابيع، وليس لديه ما يخفيه ويعترف به، ولكن المرضى أخبروا المدير أن الشاب الذي يضرب ليس مريضاً، ودّسته الشرطة بينهم ليتجسس عليهم ويعرف ميولهم السياسية، فغادر المدير الغرفة متحيراً ليرى في الممر ممرضتين تلصقان بالحائط طبيباً شاباً ذا وجه أبيض وشعر أشقر، وتلمسانه بأصابع عابثة، وقالت إحداهما للمدير العابس الوجه: «المسكين مريض ولا يشتكي، ونحن نفحصه».

فتمتم المدير بكلمات مبهمة، وسار في الممر على عجل، ودخل أول غرفة صادفته، فصدمته تواً رائحة قوية مقززة تنبعث من عجوز مسجى على السرير بغير حراك، شاخص العينين، يغضن وجهه الأصفر ألم طاغ لا يحتمل، فسارع إلى الخروج من الغرفة بخطى مذعورة، ولم يكمل جولته في المستشفى الكثير الغرف، وهرع إلى الغرفة المخصصة للأطباء راغباً في الزعيق المؤنب حتى يبحّ صوته، فوجد فيها أربعة أطباء يحتسون البيرة ويدخنون السجائر، ولم يقفوا له احتراماً، ولم يبد عليهم أنه رأوه، وظلوا يحدقون بفضول إلى ما يعرض على شاشة التلفزيون، فوقف لحظات مرتبكاً واجماً ثم جلس على كرسي قبالة جهاز التلفزيون محملق العينين، فرأى أحدث الطائرات الحربية تلقي أكياساً ضخمة معبأة بالقمح والسكر فوق بيوت من طين عتيقة مبعثرة على أرض جرداء، وكلما حط كيس فوق سقف بيت هده ودفن سكانه تحت أنقاضه مغمورين بالقمح والسكر، وكانت الطائرات تصيب أهدافها بدقة، فيتصايح الأطباء إعجاباً ببراعة الطيارين ويكبّر المدير بصوت خافت فزع.

35

طلقت إقبال الطباخ زوجها بعد أن ضبطته مختلياً بخادمتها في وضع مناف للحشمة، وقالت له: «لو خنتني مع واحدة أجمل مني وعائلتها أرقى من عائلتي وتعليمها أحسن من تعليمي وسيارتها أفخم من سيارتي لما زعلت منك ووجدت لك ألف عذر، ولكن أن تخونني مع خادمة وقبيحة وعجوز ورائحتها تفطس، فهذا ما لا أفهمه وسيحيرني حتى أموت».

فضحك زوجها، وقال لها: «وأين ذكاؤك؟ لماذ تناسيت أن من يأكل البقلاوة كل يوم يملّ ويستمتع بأكل الزبالة؟».

وعندما صدر قانون جديد يعطي النساء حقهن في الانتخابات ويتيح لهن ترشيح أنفسهن لعضوية البرلمان، كانت إقبال الطباخ أول امرأة تقدم على ترشيح نفسها غير آبهة لما سيواجهها من صعاب، فأيدتها النساء بحماسة، فهي واحدة منهن، وعانت من ظلم الرجل ونزواته ودناءته ما يعانين، وقادرة على أن تكون صوتهن المدوي، وأيدها الرجال بفتور سرعان ما انقلب حماسة منقطعة النظير بعد أن صارت إقبال الطباخ تستقبلهم على انفراد

الواحد تلو الواحد، وتناقشهم بأناة، وتقنعهم بآرائها وأفكارها معتمدة على حجج مفحمة ومنطق سهل ممتنع لا يقاوم، فكان الخارجون من بيتها يحذرون الداخلين من نار تنتظرهم وتحرقهم من دون أن تميتهم، وتدفعهم إلى المطالبة بأن يحرقوا ثانية.

ولما أعلن فوز الطباخ في الانتخابات النيابية، زغردت نصيراتها ومؤيداتها، وهلل مؤيدوها، ولكن إقبال الطباخ تذمرت من كونها مضطرة إلى ارتداء ثيابها، وتضاءل تذمرها عندما تذكرت أنها ستلتقي في البرلمان خصوماً أشداء ألداء لن يتاح لها التغلب عليهم إلى باللجوء إلى حججها المفحمة ومنطقها السهل الممتنع الذي لا يقاوم ولا يقهر.

36

لم يترك مختار الكحال طبيباً ذائع الصيت إلا وقصده طالباً علاج ما أصاب ذاكرته من وهن شديد جعله كثير النسيان، لا ينجو من مواقف محرجة لا تليق بمكانته، ولكن الأدوية المستوردة والأدوية المحلية أخفقتا في شفائه، وظل فريسة لعلته، وعندما لمح رشا تلك الفتاة التي تمشي على الأرض كأنها تطير، قفز كأن ماءً مغلياً مسه، ونسي أن عمره ستون سنة، ونسي أنه تزوج أربع مرات، وكل زواج لم يثمر أي أبناء، وانتهى بالطلاق والتراشق بالفضائح، ورغب في الزواج من رشا بأقصى سرعة، فوافق أهلها بحماسة وترحاب، فهو ذو حسب ونسب عريق، وثرواته لا تحصى.

وكان نسيان مختار الكحال وباء قابل للعدوى، فكل الذين اختلط بهم أصبحوا نسائين مثله، فأهل رشا نسوا أن يسألوا رشا عن رأيها في من ستتزوجه، ورشا نسيت أن تعاتب أهلها لأنهم لم يستشيروها في من سيكون شريك عمرها وستراه في الليل والنهار.

وتزوج مختار الكحال رشا في أسرع وقت كما رغب،

فتهامس جيرانه أن المال الكثير يجعل من الهيكل العظمي بطلاً يذلّ الأبطال.

وبعد شهر من زواجهما، اشترى مختار الكحال الكثير من الخراف، وذبحها، ووزع لحمها طازجاً على الفقراء والمساكين احتفالاً بأن رشا حبلى، ولكنه منعها من مراجعة أي طبيب، وكلف قابلة عجوزاً موثوقة من عائلة الكحال الإشراف على رشا والاهتمام بحبلها، وبعد تسعة أشهر، أنجبت رشا صبياً أشقر الشعر، فوزع مختار الكحال الأموال بسخاء على المحتاجين الذين دعوا له بأن يرزق كل سنة بابن جديد، ولكن القابلة العجوز استغربت أن يكون الصبي شديد الشبه بالدكتور عبد الغني المظيب، ونظرت إلى السماء بخشوع معترفة أن الله قادر قدير.

وفي السنة الثانية، أنجبت رشا صبياً أسمر ذا شعر أسود، خشن، قاس، فتعجبت القابلة من المصادفات التي جعلت الصبي شبيهاً بقاسم الطيان الذي يعمل في بناء العمارات، واكتفت بالقول إن الخالق يفعل ما يشاء.

وفي السنة الثالثة، أنجبت رشا بنتاً ذات بشرة ناصعة البياض وعينين كبيرتين خضراوين وشعر أسود ناعم، فدهشت القابلة العجوز من كون البنت تشبه الصيدلي عباس الحكيم، وقالت إن الخالق سيد والمخلوق مجرد عبد خلق ليطيع.

وفي السنة الرابعة، أنجبت رشا صبياً نحيلاً طويل القامة ذا أنف كبير، فاحتارت القابلة العجوز من ذلك الشبه العجيب بينه وبين الرئيس الجديد لمخفر الشرطة، وتمتمت أن الله يرزق بغير حساب.

ونمي إلى سمع مختار الكحال ما تشيعه القابلة العجوز عن

تشابه أولاده بآخرين، فاستدعاها، وهددها غاضباً بقطع لسانها إذا ما واصلت نمائمها، فلم تخف، ومدت لسانها خارج فمها بتحد، وقالت له: «هيا اقطعه».

وأضافت بصوت حانق: «أنت تلومني، ولا أحد يستحق اللوم سوى المرحوم والدك الذي كان مغرماً بالمتزوجات وكثير الغزوات، ولم يترك امرأة تفلت منه، ولو لم يأمرنا الله بالسترة لحكيت كل ما أعرفه، فأم الدكتور المظيب وأم الطيان وأم الصيدلي وأم رئيس المخفر كنّ صاحبات والدك، له اللحم والدلال، ولأزواجهن العظم والنكد والكرب».

فسرّ مختار الكحال بما سمعه، وبدت له الدنيا أرضاً ملأى بالألفة، وتعج بأخوة له لا يعرفهم ولا يعرفونه.

وفي السنة الخامسة، حبلت رشا، ولكنها لم تنجب أي ولد إذ ماتت في أثناء المخاض، ولكن القابلة العجوز أكدت أن الجنين لو قيض له أن يولد ويعيش لكان شبيهاً بعدلي المحمود الذي يتنقل من بطالة إلى بطالة، وأقرت أن الله رحيم حكيم.

37

قال المذيع التلفزيوني المختص بتقديم النشرة المتنبئة بالأحوال الجويّة إن المطر سيهطل بغزارة في الليل، وقال الإعلان الذي أعقب نشرة الأنباء الجويّة إن فيتامين سي الفوار أحسن وسيلة للوقاية من الإصابة بالزكام، وقالت المذيعة التي ظهرت على الشاشة الصغيرة بعد الإعلان إن فيلم السهرة سيكون بوليسياً، وتمنّت للمشاهدين سهرة ممتعة معه، وغادرت الاستديو ليبلغها أحد الموظفين أن مدير التلفزيون يطلبها لمقابلته حالاً، فهرعت مضطربة إلى مكتبه، فرجاها المدير الجلوس، وأشار إلى فنجان قهوة قريب منها قائلاً إنه طلبه لها سلفاً، وتحدث بإسهاب وإعجاب عن إلقائها، ووصفه بأنّه متميز وجذاب، وتحدث عن شعرها، وقال إن حلاقها يستحق مكافأة سخية، وتحدث عن عينيها، ووصف نظراتهما بأنها نظرات ملكة متواضعة، وتحدث عن جسدها حديث الخبير الذي لا يكتفي بالكلام، فأغمضت المذيعة عينيها، وقالت للمدير بصوت خافت مرتعش: «ماذا تفعل؟».

قال المدير: «احزري».

قالت المذيعة: «لم أحرز».

قال المدير: «حاولي مرة ثانية. لا داعي إلى العجلة».

فعملت المذيعة بنصحه، ولم تحاول أن تفتح عينيها، فالليلة ممطرة، والفيلم البوليسي مخيف ومكتظ بالضحايا، وسبق لها أن رأته.

38

أراد سيف القطان النهوض عن كرسيه ومغادرة المقهى عندما لمح المرأة التي اعتاد ملاحقتها تسير على الرصيف كعادتها كل صباح متجهة إلى مقر عملها، فبوغت بأنه قد التصق بالكرسي، والكرسي نفسه التصقت قوائمه بالأرض، فخطر له أن ينادي الجرسون طالباً مساعدته، ولكنه تراجع عما خطر له لحظة تخيل أن الجرسون قد ينبه رواد المقهى إلى ما حل به ويقول لهم: «يبدو أن الأستاذ سيكون ضيفنا إلى أجل غير مسمى».

واضطر سيف القطان إلى البقاء جالساً على كرسيه الملاصق لحائط المقهى الزجاجي، يحدق واجماً إلى الشارع المزدحم بالمارة والسيارات، وقد طلب فنجان قهوة واحتساه، وطلب شاياً وشربه، واشترى جريدة ومجلة وقرأهما حرفاً حرفاً، وكان بين الحين والآخر يحاول النهوض عن كرسيه، ولا يوفق، وعندما شارفت الساعة على الثانية ظهراً ركز نظراته على الشارع متوقعاً مرور المرأة فيه بعد خروجها من عملها، ولم يخب توقعه، ومرت المرأة تمشي مشيتها المتمهلة المفعمة بالكبرياء، ولكن عينيها كانتا مختلفتين عن كل

الأيام الأخرى، فقد رمقتاه بنظرة طويلة لا تكبت نداءً حارا صريحاً لم يره من قبل، وحاول النهوض عن كرسيه، فإذا هو يفلت منه بغير أي عائق، وسارع إلى الخروج من المقهى، ولحق بالمرأة حريصاً على أن يكون بينه وبينها عدة أمتار كعادته في كل يوم. وفجأة توقفت المرأة عن المسير بينما تابع سيف مشيه جامد الوجه مرتبكاً، وما إن اقترب منها حتى صاحت به بغضب مستنكرة ملاحقته لها، فتجمع فوراً حولهما عدد من الرجال المتأهبين لمساعدة المرأة، وسألها أحدهم وهو يشير بسبابته إلى سيف القطان: «هل بدر منه ما لا يليق؟».

فأجابت المرأة توا: «كل يوم، وطوال سنة، يلاحقني في الصباح والظهر، ويطلب مني الذهاب معه إلى بيته مدعياً أن أهله مسافرون، ولكنه اليوم أمسك يدي، وحاول جرّي إلى بيته غصباً عني».

فبهت سيف القطان من كذبها، وحاول أن يتكلم، فأهوى الرجل بيده على وجهه في لطمة مدوية قائلاً له بنزق: «اخرس يا كلب! ألك أيضاً لسان يحكي؟».

وكانت تلك اللطمة مجرد مقدمة، وبادر الرجال الآخرون إلى المشاركة في صفعه وركله ولطمه، واستطاع سيف على الرغم من الضرب الموجع المنهال عليه أن يلمح المرأة المعجب بها واقفة منفرجة الشفتين كأنها تلهث، وإحدى يديها على عنقها كأنها تختنق، ويطل من عينيها النداء الحار نفسه، فصاح بضاربيه، وأهاب بهم أن يضربوه ضرباً أقسى، فظنوا أنه يسخر منهم، واشتد ضربهم له، وصار حاقداً متوحشاً يُرغم على زيارة المستشفيات أو المقابر.

39

كان مظهر الحسيني يعتقد أن لزوجته مزايا غامضة خفية محيرة، لا تأويل لها، ولا يعرفها إلا من عاش معها، فكلما عانقها تلقى خبراً ساراً يغيّر حياته، فقد كان يعانقها بلطف ورقة لحظة علم أنه قد عيّن مديراً عاماً لشركة حكومية ذات ميزانية سنوية ضخمة ومحاسبين كسالى، وكان يعانقها بتهذيب ووداعة عندما أبلغ أنه اختير وزيراً للمالية، وكان يعانقها بشراسة وعنف عندما أذيع في نشرة الأخبار التلفزيونية نبأ تكليفه رئاسة الوزارة، وكان يعانقها كما يعانق الطفل قطته عندما نمي إليه أن الشعب بأسره انتخبه رئيساً للجمهورية.

ولم يتكلم مظهر الحسيني في أي يوم عن مزايا زوجته، وحرص على إبقائها سراً، ولكنه في ليلة من الليالي تجرع الكثير من الخمور حتى أحس أن كل ما حوله يترنح، واعترف لبعض أصدقائه المقربين بالدور الخفي لزوجته في كل ما ناله في حياته من نجاح، فلاذ أصدقاؤه بالصمت، ولم يقولوا له إنهم عانقوا زوجاتهم وعانقوا زوجته من دون أن تتحسن أحوالهم، وقد لاحظ أنهم لم يوافقوا

على ما قاله، فحاول إقناعهم، ولم ينجح، فعاد إلى قصره متكدراً، وبادر إلى معانقة زوجته متلهفاً على لحمها البض، فاتصل به سكرتيره تلفونياً ليقول له إنه لم يستطع أن يصبر حتى الصباح، وأعلمه بصوت متهدج خاشع أنه قد منح الجنسية الأميركية.

40

احتفل هاني عبد المطلب بعيد ميلاده الثلاثين في غرفته الضيقة، والتصق بوسادته متلمظاً، وتخيل أنها الممثلة شارون ستون تموء.

ووقف أمام المرآة، وتخيل أنه يخاطب نساء جميلات غاضبات من بخله، ويقول لهن: «سأقترح عليكن ما تطالبن به».

ودخل الحمام، وغسل وجهه ويديه بالماء والصابون، وتخيل أن جنرالات العالم يتزاحمون على باب الحمام حاملين المناشف القطنية.

واستند بظهره إلى الحائط، وتخيل أنه الحائط الوحيد المتبقي على سطح الأرض.

وجلس على الأريكة العتيقة، وتخيل أغنياء العالم ماثلين أمامه مطأطئي الرؤوس يستجدون إرشاده للحفاظ على ملايينهم، فيشترط أن كل كلمة سينطق بها سيكون لها ثمن باهظ غير قابل للتفاوض أو المساومة، وتخيل أيضاً كل علماء الأرض يهرعون إليه

طالبين منه النصح، فيقول لهم: «ليس لدي غير نصيحة واحدة، وهي أن تنسوا حالاً القراءة والكتابة».

وشرب ماء بارداً، وتخيل أنه ويسكي معتق، وغادر غرفته، وخرج إلى الشارع، ومشى على رصيفه مترنحاً، وأمسك بكلتا يديه جذع شجرة، وتقيأ نادماً لإفراطه في السكر.

41

وضع عبد الهادي البطيخة ذات القشرة الخضراء في صحن كبير، وقال لنفسه وهو يتأهب لقطعها بالسكين: إذا كان لبها أحمر، فسأتزوج سهى، ونختلف بعد سنة، وننفصل إثر معارك طويلة في المحاكم الشرعية، أما إذا كان لبها أبيض، فستتزوجني سهى، ولن أتنفس إلا بعد استئذانها.

وقطع البطيخة نصفين، فإذا لبها أصفر شاحب، فقال لنفسه: إذن سأبقى عازباً.

وألصق سماعة التلفون بأذنه، وحاول الاتصال بصديقه عبد اللّه، وقال لنفسه: إذا وجدته في البيت، فسأذهب إلى إحدى دور السينما، وأتفرج على فيلم بوليسي، وإذا لم أجده، فسأتسكع في الشوارع ستين دقيقة، لا تزيد دقيقة، ولا تنقص دقيقة.

فلم يجد عبد اللّه في بيته، وردت أمه قائلة إنه ذهب إلى بيت أخته ليصالحها مع زوجها، فبادر عبد الهادي إلى مغادرة بيته، وبدأ

التسكع في الشوارع، وقال لنفسه: إذا أتعبني المشي، ذهبت إلى المقهى، ودخنت نرجيلة، وإذا لم أتعب، فسآكل في مطعم.

وتسكع ساعة كاملة من غير أن يتعب، فدخل مطعماً، وطلب لحماً مشوياً وسلطة، وقال لنفسه: إذا كان اللحم طرياً، فسأدلي غداً بصوتي في الانتخابات النيابية، وإذا كان اللحم قاسياً، فسأتحرش بأول امرأة أصادفها في الشارع.

وأتى الجرسون باللحم والخبز والسلطة، فإذا اللحم أشبه بالجلد، فاشمأز عبد الهادي منه ولم يأكله، واكتفى بالتهام الخبز مع السلطة، وخرج من المطعم، وكانت أول امرأة رآها في الشارع جميلة ذات جسد مكتنز، فاندفع نحوها، ولمس ردفيها، فهرعت المرأة إلى شرطي قريب مشتكية، فقال عبد الهادي لنفسه: إذا قبض الشرطي عليّ، فسأتبرع بعد يومين بدمي، أما إذا اكتفى بصفعي مؤدباً، فسأذهب في الليل إلى حمام السوق.

ولكن الشرطي لم يقبض عليه أو يصفعه إنما قال للمرأة بعد أن تأملها بنظرات متفحصة معجبة: «الحق معه. من يرَ كل هذا الجمال يعجز عن ضبط نفسه».

فتجمد عبد الهادي في الشارع متحيراً، ولم يجد ما يقوله لنفسه.

42

لو قالت عفت إن الشمس سوداء لما عارضها زوجها طه، بل سينظر إلى الشمس الصفراء ويقول إنها سوداء لثقته بعفت، ولكن أهله كانوا يخالفونه، فأخته تراها حرباء وعقرباً، وأخوه الأول يصفها بأنها مجرد امرأة تحسن استخدام ما تملكه، وأخوه الثاني يقول إنها محظوظة لأنها تزوجت بطفل كبر جسمه ولم يكبر عقله، وأبوه الطويل اللسان يستهجن خضوعه لها مع أنه أكثر منها جمالاً ونعومة وأنوثة. أما أمه، فلا تطيق سماع اسمها بعد أن ترك طه بيت أهله وسكن وزوجته وحدهما، وتقول: «الخطأ خطؤنا لأننا زوجناه صغيراً لا يعرف الدنيا، وما إن شمّ رائحة المرأة حتى داخ ونسي أهله.. عديم وقع في سلة تين».

وكان طه يستمتع بخضوعه لعفت، فهو يراها أجمل امرأة، ويتألق جمالها حين تكون راضية، فتغريه بأن يشتاق إليها حتى وهو في عمله، وعندما تسلم فجأة قراراً بفصله من العمل وبلا مسوغ، لم يحزن أو يغضب، ورحب خفية بما حلّ به إذ سيتيح له الالتصاق بعفت ليل نهار، ولكن عفت قالت له في صباح أحد

الأيام بصوت متأفف متضجر: «كف عن النظر إلي كما ينظر القط الجوعان إلى قطعة اللحم، فأنا لست من حديد».

وطلبت منه البحث خارج البيت عن تسلية أخرى، فأكد لها جازماً أنها هي الوحيدة في الدنيا القادرة على تسليته، فاقترحت عليه بصوت هازئ أن يلعب في الشارع مع الأولاد، فقال لها بدهشة: «ما هذا الاقتراح العجيب؟ ماذا سيقول الناس عليّ حين يرون شاباً بطول الحورة يلعب مع أولاد صغار؟».

فقالت له عفت بلؤم: «ما دمت معجباً بقعدة البيت ولا تبحث عن أي عمل وتنسى أنك مسؤول عن عائلة، فلا شيء يصلح لك سوى اللعب مع الأولاد».

فنهض طه عن كرسيه مغتاظاً غيظاً يحس به أول مرة منذ زواجهما، وغادر بيته في الطابق الثالث على عجل، وبينما كان ينزل الدرج الحجري تناهت إلى سمعه أصوات مبهمة مثيرة للفضول، فأطل من أعلى، فإذا عند باب البيت في الطابق الأول اثنان من سكانه يعرفهما ويظن أنهما أخ وأخت، وكان الولد الذي لا يتجاوز عمره الثانية عشرة ملتصقاً ببنت أصغر منه سناً، وممسكاً خصرها بكلتا يديه، وكانت البنت لا تحاول إبعاده عنها بل تزداد التصاقاً به كأنها تريد أن يصيرا مخلوقاً واحداً، فسعل طه سعالاً مفتعلاً، فتنبه الاثنان له، وسارعت البنت إلى دخول البيت صافقة بابه خلفها بأقصى ما تملك من قوة بينما بقي الولد واقفاً منفرج القدمين، مشدود القامة، محمر الوجه، فقال له طه بصوت ممطوط: «السلام عليكم».

فلم يرد الولد على تحيته بل رمقه بنظرات متحدية، فلم يأبه طه له، وتابع نزوله الدرج يطغى عليه خجل استنكره ولم يعرف سببه.

وخرج طه من مدخل البناية ليجد الشارع خالياً من أي أولاد يلعبون، ومشى على الرصيف تحت شجر أخضر مغبر وئيداً ومن دون هدف، ولم يكن ناقماً على عفت، ولام نفسه لأنه لم يستدرجها للتكلم عن خطئه في الليل الذي جعلها صباحاً عصبية متعكرة المزاج، وحملق بعد مسير قصير إلى تابوت يحيط به رجال ونساء وأطفال يبكون ويصرخون على الرغم من أن التابوت كان فارغاً ليست فيه أية جثة، وتخيل أنهم بعد لحظات سينقضون على أي عابر طريق ويضعونه في التابوت، فابتعد عنهم بخطى مسرعة، وعندما تعب وتباطأت خطواته لاحظ رجلاً يطل من نافذة في الطابق الأول من بناية من حجر أبيض، ويصيح مخاطباً ولداً أبيض الوجه يقف بالقرب من مدخل البناية: «ارجع إلى البيت ولن تندم».

وكان الولد متجمداً في مكانه كالجردان، فقال له طه: «أما تسمع صياح أبيك؟».

قال الولد بنزق: «ليس أبي».

ـ: «أخوك؟».

ـ: «ليس أخي وليس عمي وليس أمي وليس واحداً من أقربائي».

فصاح الرجل بطه بصوت حانق: «يا شاب امش بطريقك ولا تتحرش بالولد وإلا استدعيت لك الشرطة».

فتابع طه سيره محاولاً جهده ألا تبدو خطواته خطوات هارب مذعور، وتنقل من شارع إلى شارع وهو يتصبب عرقاً، ووصل إلى شارع جديد مكتظ ببنايات حديثة، بعضها مكتمل البناء من دون

أن يسكنه أحد، وبعضها الآخر كالمهجور وغير مكتمل البناء، وقد بوغت برؤية رجال يتضاربون بشراسة وعنف غير مبالين برجال الشرطة الذين كانوا يحاولون أن يمنعوهم من التضارب، وقد تنبه طه لرجل كث الشاربين، طويل القامة، عريض الكتفين، جاحظ العينين، يحدق إليه بنظرات متفحصة، فتطلع طه إليه باستغراب واستنكار، فابتسم له الرجل الغريب، ودنا منه، وسأله عن سبب المشاجرة، فأجاب طه فوراً أنه لا يعرف السبب، فقال الرجل باستنكار: «وكيف لا تعرف السبب؟».

فارتبك طه، ولم يجب بأية كلمة، فوضع الرجل الغريب يده المبتلة بالعرق على رقبة طه، وقال له عابس الوجه: «أنت تعرف السبب وتكذب عليّ».

فازداد ارتباك طه، وأقسم بصوت متلعثم أنه لا يعرف سبب المشاجرة، وأحس بأصابع يد الرجل الغريب تضغط على رقبته خانقة، وقال له الرجل بصوت غاضب: «أتتهمني بالغباوة؟ أنت تعرف السبب ولا تخبرني به».

فلم يرد طه، وراقب رجال الشرطة وقد ابتدأوا يقيدون المتشاجرين ويجرونهم إلى السيارات، فقال الرجل الغريب لطه: «ألا تستحي؟ لماذا تنظر إلى رجال الشرطة كأنهم قتلوا أمك؟ أهذا جزاء من يخدم الناس؟».

ـ: «بالعكس، أنا أحب رجال الشرطة وأحترم مهنتهم».

ـ: «أنت كذّاب. أنت كغيرك من الناس لا تحب رجال الشرطة، ولكنك تكذب وتسايرني وتقول إنك تحبهم».

فقال له طه نافد الصبر: «اسمع. أنت لا تعرفني وأنا لا أعرفك، ولا موجب لأن تتكلم معي».

وحاول الابتعاد عنه، ولكن الرجل الغريب منعه. وقبض على رقبته بيد قوية الأصابع، وقال له بلهجة مهددة: «هيا امش معي وإلا ندمت».

قال طه: «إلى أين؟ إلى مخفر الشرطة؟».

فلم يجب الرجل الغريب، واقتاده إلى قبو بناية قريبة فارغة غير مكتملة البناء، وهناك في داخلها لم يتكلم عن المشاجرة أو رجال الشرطة، وعندما أتيح لطه مغادرة البناية وجد نفسه يمشي متعثر الخطى مستعيداً بخجل ما حدث له على أرض قبوها، وتذكر أنه سأل الرجل الغريب: «لماذا تحمل مسدساً؟».

فضحك الرجل الغريب، وأجاب: «حتى لا يُفعل بي ما أفعله بك».

وأحس طه بالجوع واستغربه، وأخرج من جيبه قطعة من الشوكولاتة كان الرجل الغريب قد أعطاها له، وهمّ بقذفها أرضاً باشمئزاز، ولكن يده الممسكة بها رفعتها إلى فمه، ودستها فيه، فقضمتها الأسنان وطحنتها الأضراس لتمتزج باللعاب، ودهش طه مما فعلت يده، وصمم على ألا يبر بوعده للرجل الغريب بأن يأتي إلى البناية في اليوم التالي في الوقت نفسه، واستغرب ما كان قد أحس به من زهو لحظة قال له الرجل إنه جميل ولذيذ، وتمنى أن تسمع زوجته ما قيل له، وظل طه يمشي في الشوارع حتى تعب، فدخل أول مقهى صادفه، وراح يدخن السجائر ويحتسي قهوته. فأتى إليه رجل عجوز ذو شعر قصير أشيب ووجه يشبه إجاصة

مقلوبة، وسأله أن يسمح له بالجلوس معه، فرحب طه به باضطراب ودهشة لأنّ أكثرية الطاولات في المقهى كانت فارغة.

قال الرجل العجوز لطه إنّ الجوّ اليوم حارّ مع أن نشرة الأحوال الجوّية تنبأت ليلة أمس أن الجوّ سيكون بارداً، وقال وهو ينظر إلى طاولات لاعبي الكونكان إن القمار أخطر من المخدرات، فمدمن المخدرات قد يشفى بينما مدمن القمار لا شفاء له، وقال إنه لم يأكل كعادته كلّ صباح وهو نادم الآن لأنه يحسّ بالجوع، فسأله طه عن عمله، فقال إنّه الآن متقاعد، وكان يعمل في التجارة، وتاب وحجّ مرتين حتى يغفر له الله الكذب الذي اضطر إليه لإنجاح عمله التجاري، فسأله طه عن عمل أبنائه، فنظر إلى طه بدهشة، وقال: «لا أبناء لي ولا بنات، نجّانا الله من مشاكل الأبناء والبنات، ولم أتزوج طوال حياتي، نجّانا الله من شرّ النساء».

وحدّق الرجل العجوز بنظرات آسفة إلى رواد المقهى، وقال إنّ معظم أصدقائه ماتوا، والأحياء الباقون مرضى يصارعون الموت.

ولاحظ طه أن جرسون المقهى يشير إليه خلسة أن يأتي إليه، فترك طاولته بحجة أنه سيغسل يديه، وذهب إلى الجرسون الذي بادر إلى سؤاله بصوت منخفض: «من هذا الرجل الذي تجلس معه؟».

فقال طه: «لا أعرفه ولا يعرفني، وأنا لا أجلس معه بل هو الذي أتى وجلس معي».

قال الجرسون: «يا غشيم.. هذا رجل معروف، قتل ما لا يقلّ عن عشرة أشخاص».

فقال طه للجرسون: «إذا كان كلامك صحيحاً، فكيف لم يسجن أو يعدم؟».

قال الجرسون: «لا أعلم، وناقل الكفر ليس بكافر. أنا أنقل إليك ما سمعته عنه، فكن حذراً معه، وأنصحك بألا تغضبه».

فعاد طه إلى طاولته، وقدم إلى الرجل العجوز سيجارة أخذها شاكراً، وتكلم عن المرحومة أمه التي رآها في المنام ترتدي ثياباً بيضاً وتفوح منها روائح عطرية، وسأل تفسير منامه، فقال له طه إن للمنام تفسيراً واحداً، وهو أن أمّه تحيا في الجنة، ففرح، وسأل طه: «أتوجد مقاه في الجنة؟».

فقال طه بثقة: «توجد مقاه ومطاعم، ولكنها مجانية».

فازداد فرح العجوز، وسأل طه: «وماذا يوجد أيضاً في الجنة؟».

قال طه: «يوجد في الجنة كلّ ما تشتهيه. تشتهي أن ترى حمامة، فتُخلق فوراً، وتطير حولك، وتشتهي أن ترى قطّاً، فيُخلق القطّ خصيصاً لك، ويأتي إليك، ويتمسح بقدميك وهو يموء، وتشتهي امرأة بمواصفات معينة، فتُخلق المرأة حالاً، وتركض إليك لتفعل كلّ ما يرضيك».

فقال الرجل العجوز لطه: «الله الله. شوّقتني إلى الجنة. حتى إذا كان نصيبي في الآخرة جهنم، فسأهرب إلى الجنة».

وعاود الجرسون إشاراته الغامضة لطه وبشيء من النزق، فودّع طه الرجل العجوز الذي شكره بحرارة لأنه أتاح له التحدّث مع أنه كاد ينسى الحكي، وغادر طه المقهى على عجل متجاهلاً إشارات الجرسون، واستأنف تجواله في الشوارع حتى ساد الليل، وركب باصاً يمر بالقرب من بيته، وجلس بجوار امرأة ترتدي ثياباً سوداً،

فحملقت إليه بتعجب، فامتعض من نظراتها، وسألها بهزء: «هل الجلوس هنا ممنوع؟».

فابتسمت المرأة ابتسامة حزينة، وقالت له: «لا لا. أنا أنظر إليك لأنك تشبه ابني نبيل، الله يرحمه».

فقال لها طه: «الله يرحمنا جميعاً».

فمسحت المرأة عينيها وأنفها بمنديل من قماش أصفر، فسألها طه: «ومتى مات المرحوم ابنك؟».

قال المرأة: «قبل أربعة أيّام».

قال طه: «وكيف مات؟».

قالت المرأة: «في حياته كلها لم يمرض مرة واحدة. نام في الليل، وجئنا في الصباح لنوقظه، فوجدناه ميتاً».

فسألها طه: «وكم كان عمره؟».

قال المرأة: «في مثل عمرك أو أصغر منك أشهراً».

وجاء جابي الباص نحو طه، فأقسمت المرأة أن تدفع له ثمن تذكرته، فلم يمانع، وشكرها، فقالت مبهورة: «سبحان الخالق! حتى صوتك يشبه صوته».

وأعطته عنوان بيتها راجية أن يزورها حتى يراه زوجها الذي لا ينام الليل حزناً على ابنه، فوعدها بزيارتها في أقرب فرصة، وظلت تكلّمه عن ابنها حتى أحس أنه يعرفه، وحزن لوفاته الحزن الصادق.

وعندما عاد إلى بيته في الطابق الثالث، وجد عفت تنتظره قلقة، وقد سألته عن سبب تأخره، فحملق إليها صامتاً متعجباً من أنه لم يتنبه من قبل إلى بلاهة مفرطة تحتل عينيها الكبيرتين، فطلبت منه أن يجاوبها حالاً ويكف عن تمثيل دور الولد المدلل الحردان، فلم يبال

بها، وتركها تنهال عليه بالأسئلة من دون أن يتفوه بكلمة، فغضبت، وذهبت إلى غرفة النوم، وصفقت الباب خلفها بشدة، فابتسم طه باستخفاف، وخرج إلى شرفة البيت في الطابق الثالث تواقاً إلى القليل من الهواء، فرأى شباكاً مضاءً مفتوحاً في الطابق الأول في البناية المقابلة، ورأى امرأتين على سرير تتبادلان القبل الحارة الطويلة كأنهما رجل وامرأة، وتنبهت إحداهما إليه، فتمادت في ما تفعله، وخيل إلى طه أنها تسخر منه، ولم يتح له متابعة ما يجري وراء الشباك المفتوح إذ أطفئ المصباح الكهربائي الذي كان ينير الغرفة، ولكنه ظل يسمع ضحكات المرأتين، فعاد إلى غرفة الجلوس، وقعد على أريكته المفضلة قبالة جهاز التلفزيون، وراح يتابع برامجه حتى نعس، فتمدد على الأريكة، وتذكر عندئذ ما جرى له، واستنكر خضوعه للرجل الغريب، وعزم على أن يذهب في اليوم التالي إلى قبو البناية في الوقت المتفق عليه متسلحاً بسكين تصرع ثوراً، وابتسم بمرح لأن يده ستفلتها حالما يأتي الرجل الغريب، ونام نوماً عميقاً حافلاً بالأحلام غير المزعجة، وقد أيقظته زوجته صباحاً عابسة الوجه قائلة له إنه قد تأخر عن عمله، فحدق إليها كأنه لا يعرفها، وعاود النوم، ورأى في أثناء نومه ميتاً مسجى في تابوت بلا غطاء، وملقى على أرض سوق مزدحمة بالبائعين والمشترين، ولا أحد يبالي به.

وشهق طه مرعوباً لحظة رأى وجه الميت المذبوح، ورغب في أن يستيقظ ولكنه ظل نائماً.

43

دخلت سميرة الغصّ غرفة النوم فجأة، فوجدت رضوان مستلقياً على السرير يحملق بعينين حمراوين إلى صفحات مجلة ملأى بصور نساء عاريات، فتعالى صياحها الغاضب في أرجاء البيت، فبادر رضوان إلى تمزيق المجلة، ووعد سميرة أنه حتى موته لن يمس إلا المجلات التي تنشر صور رجال فقط، فلم تتوقف سميرة عن توبيخه والهزء به، فهدد بالحرد والذهاب إلى بيت أهله، فقالت له سميرة: «هيا اذهب. لا أحد يمنعك».

فدعك رضوان عينيه بأصابع يديه، وقال لسميرة: «ما دمتِ متضايقة مني إلى هذا الحدّ، فلماذا لا تستريحين من رؤيتي وتسمحين لي بالذهاب إلى المقهى؟».

قالت سميرة: «هل غسلت الصحون؟».

قال رضوان: «غسلتها وغسلت كلّ الملاعق والشوك والسكاكين عندما كنت نائمة».

قالت سميرة: «وتنظيف البيت؟».

قال رضوان: «انظري إلى ما حولك تجدي البيت كله يلمع كالمرايا، نظفته عندما كنت تستحمين».

قالت سميرة: «تستطيع الذهاب إلى المقهى شرط ألا تغيب إلا ستين دقيقة. إياك وأن تتأخر ثانية واحدة».

فهرع رضوان إلى سميرة، وحاول تقبيل خدها، فأبعدته عنها بحركة مشمئزة، وقالت له بصوت مثقل بالتوبيخ: «لا داعي إلى هذه الحركات السخيفة، فأنا أعرفك وأعرف أنك لا تطيقني وتتمنى موتي».

قال رضوان بصوت متهدج مستنكر: «أعوذ بالله! لو كنت لا أطيقك، فمن يجبرني على البقاء في هذا البيت؟».

قالت سميرة: «أنت لا تترك البيت حتى تستمر في مضايقتي».

فعاد رضوان إلى القعود على سريره، وقال لسميرة: «لن أذهب إلى المقهى ما دمت غير راضية عني».

قالت سميرة: «بل ستذهب ورجلك فوق رأسك».

فغادر رضوان البيت، وعاد إليه بعد ست وخمسين دقيقة، فبوغت به مزدحماً برجال الشرطة الذين أخبروه أن زوجته قتلت، فشهق مذهولاً، ومات لحظات وعاد إلى الحياة نادماً ومشى حافياً على شظايا زجاج وبكى بغير دموع إذ لن يرى ثانية شعرها الأسود ولحمها الأبيض، ولن يسمع صوتها النزق، وطلب أن يراها، فقيل له إن جثتها نقلت إلى المستشفى، فشعر بارتياح خفي، خجل منه واستنكره، وحاول أن يكبته أو يتخلص منه، ولكنه ازداد قوة رغماً عنه وأجبر شفتيه على الابتسام، فحملق رجال الشرطة إليه باستغراب تحول ارتياباً جعل ابتسامه ضحكاً مرحاً، فتنبه لنظراتهم،

وأقسم لهم وهو يضحك أنه لا يمكن أن يقتل زوجته، ولكنهم قبضوا عليه، واتهموه بقتل زوجته، فدهش وحزن وضحك وبكى، ولم ينكر ما اتهم به، وأقرّ بما فعله، ولكنه سأل بصوت هامس الشرطي الذي كان يقيد معصميه: «كيف قتلت؟ خنقاً أم ذبحاً؟».

فلم يجب الشرطي بأية كلمة، ودفعه بغلظة في جوف سيارة مسرعة نقلته إلى أحد مخافر الشرطة حيث اقتيد إلى محقق ما إن رأى الشاب المكبل اليدين وعلم بما اتهم به حتى احمر وجهه وعض بأسنانه على شفته السفلى وأمر رجال الشرطة بتحريره من قيوده والخروج فوراً من الغرفة.

ولما غادر رجال الشرطة الغرفة، قال المحقق لرضوان بلهجة المعتذر: «لا تؤاخذهم، فهم جهلة يتصرفون كأن قتل الزوجات جريمة، كلنا نرغب في التخلص من نسائنا، لكن بعضنا شجاع جريء، وبعضنا جبان تافه، واسمح لي أن أعبر عن إعجابي برجولتك، فسجوننا ملأى بالذين يتنكرون لكل ما فعلوه، ويدعون أنهم مظلومون أبرياء».

ودعاه إلى القعود على كرسي قريب من طاولته التي يجلس وراءها، وقال له: «لا داعي إلى العصبية والتوتر. هيا هيا استرخ كأنك في بيتك. لسنا مستعجلين، ولدينا من الوقت أكثر مما نشاء. لدي سؤال واحد فقط، وهو: لماذا قتلت زوجتك وكيف قتلتها؟».

قال رضوان: «عدت إلى البيت، فلم أجد غدائي ساخناً، ولم أجد زوجتي في انتظاري كعادتها كل يوم، فبحثت عنها، ووجدتها في غرفة النوم الملأى بالرجال السكارى تتواثب فرحة من حضن إلى حضن، فجن جنوني، وشهرت سكيني، وانقضضت عليها، وذبحت عنقها من الوريد إلى الوريد».

قال المحقق: «زوجتك لم تمت مذبوحة، فلا تحاول اللف والدوران وتضييع وقتك ووقتي».

قال رضوان: «الحقيقة هي أني تغديت كالعادة في البيت مع زوجتي، وبعد الغداء، جلسنا نحتسي القهوة ونحن نتناقش في موضوعات سياسية. زوجتي تكره الحكومة كراهية العمى، وأنا أحب الحكومة، ولم أصبر على سخريتها من الحكومة، فحين تسخر منها تسخر مني، وأنا رجل لا يقبل أن تسخر منه امرأة، فارتميت عليها، وخنقتها بأصابع يدي الاثنتين، انظر إليهما، تستطيعان خنق ثور هائج».

قال المحقق: «استح وكُف عن الكذب، فزوجتك لم تمت مخنوقة».

قال رضوان: «تذكرت.. طالبتني بشراء ثوب جديد مع أن ثوبها التي ترتديه ما زال جديداً اشتريته لها قبل خمس سنين، وحاولت إقناعها بمضار التبذير والإسراف، ولم تقتنع، وظلت تلحّ عليّ لشراء ثوب جديد، ولم أكن مهبولاً حتى أبدد أموالي على ما لا ينفع، فصببت فوقها البنزين وأحرقتها».

قال المحقق: «أنت تكذب بوقاحة، فزوجتك لم تمت محترقة».

قال رضوان بارتباك: «كنت فعلاً أكذب، والآن سأقول الصدق: مللت من زوجتي، ولم أعد أطيق رؤية وجهها أو سماع صوتها، فطلقتها ثلاثاً، فأبت الخروج من البيت والعودة إلى بيت أهلها، والتصقت بي تبكي وتنوح وتقسم أنها لن تفارقني طوال حياتها، فأحسست بأنها حشرة ضخمة توشك أن تأكلني،

فأطلقت عليها من مسدسي سبع رصاصات لم تطش واحدة كما أقدر».

قال المحقق: «المرحومة زوجتك ماتت من دون أن تطلق عليها أية رصاصة».

قال رضوان: «سأذكر لك بالضبط ما حدث: أفقت صباحاً، ولم أجد فنجان قهوتي معداً، ووجدت زوجتي تتمطى وتتثاءب وتنصت لأغاني الراديو المائعة، فهجمت عليها، وشنقتها لأني لا أطيق المرأة الكسلانة التي لا تحترم زوجها».

قال المحقق: «أف! زوجتك لم تمت مشنوقة».

قال رضوان: «ما دامت لم تمت مشنوقة، فلا بد من أنها ماتت مسمومة».

قال المحقق: «ألا تستحي من الكذب؟ أتعرف أني مشهور بين زملائي بقدرتي على الصبر، ولكنك استنفدت كل ما لدي من صبر، ولو لم تكن الزنازين عندنا ملأى لوضعتك في إحداها شهراً عقاباً لثرثرتك الكاذبة ولما سمحت لك الآن بالعودة إلى بيتك».

قال رضوان دهشاً: «كأنك تقول إني لن أسجن الآن».

قال المحقق: «لن تسجن وستنام في بيتك».

قال رضوان: «واعترافاتي؟».

قال المحقق: «لا قيمة لها بعد أن قبض على شقيق زوجتك واعترف قبل قليل بأنه قتلها لأنها تعيش معك بلا زواج».

قال رضوان: «ولكننا كنا نعيش كالأزواج، وهي التي كانت ترفض الزواج وتبغضه وتحتقر المتزوجين».

فضحك المحقق، فسأله رضوان بصوت متهدج: «وكيف قتلها أخوها».

قال المحقق وهو يحك رأسه بأصابع يده اليمنى: «حملها وصعد بها إلى سطح البناية، ورماها من فوق إلى تحت، وثبت أنها لم تقاومه أدنى مقاومة، واعترف أيضاً أنه لو وجدك في البيت لكان مصيرك أسوأ من مصير أخته».

فبهت رضوان، وتخيّل سميرة مهشمة الرأس تقول له: «لم تدّع أنك قتلتني إلا لتحرمني الفرحة بمعاقبة من قتلني».

وقال المحقق لرضوان بصوت محذر ساخر: «لا تنس أن المرحومة لها خمسة إخوة».

فوقف رضوان حائراً لا يدري ماذا يفعل، فدفعه رجال الشرطة إلى خارج المخفر بحركات عدائية نزقة، فمشى في شارع يبلله مطر غزير، وخيّل إليه أن ثمة من يلاحقه، فركض فزعاً تحت المطر حتى وصل إلى بيته، وما إن أغلق الباب خلفه حتى تنهد بارتياح، ولكنه بوغت بثلاثة من إخوة سميرة يخرجون من غرفة النوم، وينقضون عليه، ويوثقونه بالحبال، ويكممون فمه، ويحملونه إلى سطح البناية، ويطوحون به إلى إسفلت الشارع، فيهوي من أعلى إلى أسفل كجورب كبير مملوء بالحصى، ويرتطم الجورب بأرض صلبة ممزقاً، وتتناثر الحصى مبتلةً بالدم، وتختلط بقمامة الشارع.

44

ضحك زهدي وهو مسترخ في جلسته قبالة التلفزيون واثقاً بأنه لن يضحك في حياته مثل هذا الضحك الصادق الحار المرح حتى ولو عاش مائتي سنة، فسألته زوجته باستغراب عن سبب ضحكه، فاستمر في الضحك من دون أن يجاوبها، فقالت له بلهجة عاتبة: «هيا خبّرني بما يضحكك حتى أضحك مثلك ولا أفارقك في السراء والضراء».

فقال زهدي لزوجته: «ألم تتابعي قبل قليل نشرة الأخبار؟».

قالت الزوجة: «تابعتها من أولها إلى آخرها، ولم يكن فيها غير أخبار الكوارث.. سيول وزلازل وأعاصير وانفجار براكين وسقوط طائرات مدنية».

قال زهدي: «رب ضارة نافعة! كلما ازدادت الكوارث نقص عدد سكان الكرة الأرضية، واقترب اليوم التي سأنال فيه ما أتمناه، وهو ألا يبقى على سطح الأرض أحياء إلا أنت وأنا.. أنت حواء وأنا آدم، وننجب ذرية جديدة لا فساد فيها ولا اعوجاج، ولا تبدأ من تفاح محرّم وقابيل وهابيل».

فحملقت إليه كأنها تراه أول مرة، فلم يبال بنظراتها، وعاود الضحك منتظراً أن تضحك، ولكنها لم تضحك لأنها تذكرت فجأة أيام كانت تلميذة صغيرة تسخر زميلاتها من خجلها، فتزداد خجلاً، وتذكرت زهدي قبل الزواج يلمسها بأصابع لاهثة، فتخجل من أن تصده وتمنعه، فيظن أن وجهها المحمر وأنفاسها المتسارعة المضطربة وارتعادها الحانق تجاوب وانتشاء وترحيب بالمزيد، وينقلها من شارع مقفر مظلم إلى غرفة موصدة الباب غير آبه لغمغماتها المتوسلة القصيرة النزقة، فتضطر إلى الموافقة عل الزواج بمزيج من دب وذئب وقنفذ، وتذكرت متحسرة أنها ستشيخ من دون أن تعرف الحب، وتذكرت جسدها في الليل وحشاً وحيداً يهجر نومه ويتمطى منادياً كل الرجال ما عدا زوجها زهدي، وتخجل من ندائه وتهرب منه، وتظل المرأة الجادة الواجمة الوقور، وتذكرت أمها التي ماتت قبل ثلاث سنوات، وبكت كأن أمها ماتت قبل ثلاث دقائق، فتوقف زهدي عن ضحكه، وقال لزوجته: «لماذا تبكين؟ إذا كنت لم تضحكي معي، فأنا مستعد لأن أبكي معك».

قالت الزوجة: «ألا تلاحظ أن الكوارث كسلانة ورحيمة وبطيئة، وقد نموت قبل أن ننال أمنيتك؟».

قال زهدي: «ماذا أفعل؟ العين بصيرة واليد قصيرة».

قالت الزوجة وهي تبتسم هازئة وتحدق إليه بنظرات عدائية: «استح من الكذب، هل يدك وحدها هي القصيرة أم أن هناك ما هو أقصر منها؟».

فارتبك زهدي، وتجهم وجهه، فضحكت زوجته مطمئنة إلى أنه في هذه الليلة لن يحاول الضحك ثانية، وسيظل عابساً.

45

ناشدت أنيسة النوم أن ينأى عنها، فزوجها مسجى في الغرفة المجاورة ينتظر الصباح ليدفن في حفرة في الأرض، ويحتاج إلى من يسامره في ليل بطيء موحش، فلم يأبه النوم لتوسلها، وتحوّل بحراً مظلماً لا يُهرب منه، ورأت أنيسة في نومها زوجها مضطجعاً فوق امرأة مرتمية على الأرض، فبهتت، وشعرت أنها تحترق، وخيل إليها أنها تعرف تلك المرأة المغمضة العينين المستسلمة لرجل يعجز وجهه عن إخفاء اشمئزازه، وأحنقها أن تُخدع، وفتحت عينيها إلى أقصاهما، وظلت متشبثة بزوجها غير مبالية باشمئزازه، وتحوّل لحمها فماً حاراً ندياً مرتعد الشفتين يطلب ماءً بارداً لا يناله، ورأت أنيسة في نومها أنها تصرخ مستغيثة في غرفة لا باب لها ولا نوافذ يغتصبها رجل لا ترى وجهه يقول لها بصوت متحشرج إنه سيقتلها ولا يقول لها إنها يحبها، فيتواصل صراخها المضطر إلى الاختناق.

46

كانت ثلاث أرائك جاثمة فوق سجاد غرفة الجلوس، ولكن عمرو وفوزية جلسا متلاصقين على أريكة واحدة كأن الغرفة تعج بضيوف غير مرئيين يتزاحمون على الجلوس، وكان عمرو يجلس صامتاً لصق فوزية التي كانت تقرأ كتاباً وهي تتنفس كأن الهواء في الغرفة مهدد بالتضاؤل، وفجأة أغلقت الكتاب، ونهضت واقفة، وطوحت به بأقصى ما تملك من قوة، فانطلق في فضاء الغرفة، وارتطم بصورة فوتوغرافية كبيرة معلقة على الحائط لرجل عجوز مستكين النظرات، وأسقطها على الأرض محطمة الإطار والزجاج، فضحك عمرو، وقال لفوزية: «سيزعل منك أبوك».

قالت فوزية: «أبونا اتركه في ترابه، يكفيه ما به، ولعله الآن يشفق عليّ لأني انتهيت من قراءة آخر كتاب في البيت، ولم يبق عندي ما أتسلى بقراءته».

قال عمرو بصوت جاد: «أنت لست محتاجة إلى شفقة أحد. غداً بإذن الله سيمتلئ البيت بالكتب الجديدة، وسأسرق لك مكتبة كاملة وأحضرها لك لأني لا أحتمل أن أراك متضايقة».

قالت فوزية: «قرأت الكثير عن فئران تقرض صفحات الكتب، وكل ما قرأته كذب في كذب، فالفئران لا تطيق الكتب».

فقال عمرو لفوزية متسائلاً بدهشة: «وكيف عرفت؟ هل استجوبت الفئران؟».

قالت فوزية: «المسألة واضحة حتى للأعمى، فالفئران قبل أشهر كانت تملأ البيت، ولكنها قبل أيام هربت منه حتى لا يهلكها الجوع، ولو كانت تحب الكتب لما هربت من بيت مملوء بالكتب، وليس فيه ما يصلح لأن يؤكل».

فقال عمرو بصوت هادئ واثق: «لا تقنطي بسرعة من رحمة الله، فغداً بإذنه تعالى سيمتلئ البيت بالخيرات وتعود الفئران إليه».

قالت فوزية متهكمة: «هل ستربح غداً الجائزة الأولى في اليانصيب أم أن لك عماً غنياً يعيش في البرازيل ومات وأوصى لك بثروته الموزعة على مصارف العالم؟».

ـ: «غداً بإذن الله سأسرق أضخم قصر في البلد».

ـ: «ستسرق أثاثه أم طناجره وملاعقه؟».

ـ: «سأسرق بإذن الله القصر جميعه حجارته وأبوابه ونوافذه».

ـ: «لا تسلم الجرة كل مرة. حراس كل القصور جبابرة أجلاف، وقد يقتلونك».

ـ: «لن أفرحك بالبكاء على جثتي، وسأنوّمهم ولا يفيقون إلا يوم القيامة».

ـ: «هل ستسرق أيضاً صاحب القصر؟».

ـ: «سأسرقه وأرميه عند قدميك موثقاً».

ـ: «ألا ترى أن إطعامه كل يوم يحتاج إلى مبلغ ليس بالقليل؟».

ـ «سأتركه بلا طعام حتى يهزل ويذوي ببطء، وستشكرني الفئران بعد أن تأكله بشهية».

ـ: «مهمتك صعبة مخيفة، وتحتاج إلى مساعدة، وبعد قليل ستحين صلاة الظهر، وسأصلي وأدعو الله أن يوفقك».

فسرّ عمرو بوعد فوزية، واسترخى في جلسته على الأريكة واثقاً بنجاحه، فدعاء فوزية مستجاب كأن السماء حريصة على إرضائها، وأغمض عينيه منتشياً وسمع فوزية تسأله بإلحاح: «لماذا لا تسرق ما يصلح لأن يؤكل حالياً؟».

ففتح عمرو عينيه، وقال لفوزية: «غداً، سأسرق بإذن الله أغنى بستان، وأجلب لك المشمش والتفاح والعنب والإجاص والخوخ والدراق والبطيخ الأحمر والبطيخ الأصفر».

فابتلعت فوزية ريقها بصعوبة، وقالت لعمرو: «اسكت اسكت. أثرت شهيتي، وسآكلك إذا لم تسكت فوراً».

ـ: «غداً، سأسرق بإذن الله خروفاً صغيراً ذبح لتوه، وستأكلين لحمه وهو لا يزال ساخناً».

ـ: «أقترح عليك أن تسرق حماراً».

ـ: «إخ! لحم الحمار لا يمضغ ولا يهضم».

ـ: «ستحتاج إليه ليساعدك على حمل ما ستسرقه».

ـ: «غداً سأسرق بإذن الله قطيعاً من الخراف، فتأكلين لحماً في الصباح والظهر والمساء».

ـ: «الدكاترة يحذرون من الإسراف في تناول اللحم الأحمر، وينصحون بالإكثار من اللحم الأبيض».

ـ: «غداً سأسرق بإذن الله نزهة زوجة جارنا، ففي حياتي كلها لم أر امرأة لها لحم شديد البياض مثلها».

ـ: «أنا متنازلة لك منذ الآن عن حصتي فيها، فكلها وحدك».

ـ: «سآكلها بلا ملح».

فدنت فوزية منه، وأمسكت يداها خصره بأصابع قوية، وسألته: «ما رأيك في أن تأكلني الآن؟».

ـ: «ستتأخرين عن صلاة الظهر، اقترب موعدها».

فقالت له فوزية وأصابعها تضغط لحم خاصرتيه: «سأجمع صلاة الظهر والعصر في صلاة المغرب، والله غفور رحيم».

فقال عمرو: «غداً سآكلك بإذن الله بعد أن أمرغك في الملح والفلفل».

فابتعدت أصابع يديها عن خصره حانقة، وانحنت على الأرض، وتناولت الكتاب، وجلست بجوار عمرو، وشرعت في قراءة الكتاب ثانية، ولكن صوتها ظل يتذمر.

47

قبّل سعيد شفتي فتاة كانت جميلة وجريئة، فامتدحت القبلة، واعترفت بغير حياء أنها استمتعت بها، ولا تعارض المزيد منها، ولكنها تأففت من شاربيه الكثين اللذين تعشش فيهما رائحة سجائر قديمة أشبه برائحة سمك فاسد، وما إن ذهب سعيد إلى بيته حتى هرع إلى الحمام غير مبال بما كانت زوجته أمل تقول له، ووقف أمام المرآة، وحلق شاربيه بيد ثابتة، وحملق إلى المرآة، فرأى فيها رجلاً يجهله، فسأله: « من أنت؟».

قال الرجل الحليق الشاربين: «اسمي رغيد».

وضحك رغيد ضحكاً مرحاً ساخراً، وقال لسعيد: «ما إن حلقت شاربيك حتى تلاشيت، ولم يعد لك أي وجود».

فقال سعيد لرغيد: «لا تشمت وتفرح، فبعد أيام أعود كما كنت لأن شعري غزير ملّل الحلاقين».

فأمسك رغيد المقص، وراح يقص شعر الرأس، ثم غطى جلد الرأس بطبقة كثيفة من رغوة الصابون، وأزال بموسى الحلاقة كل

شعر الرأس، وحوّله رأساً أصلع يلمع، وقال لسعيد بلهجة تحدٍّ: «هيا تفضل تفاخر بشعرك».

ونظر رغيد إلى المرآة مبهوتاً، فقد أبصر رجلاً غريباً لا يعرفه، فارتبك واضطرب، وسأله: «من أنت؟».

قال الرجل الأصلع: «أنا وليد».

فقال سعيد لرغيد بصوت هازئ: «ها أنت تعمدت الإساءة إليّ، فلم تسئ إلا إلى نفسك، وحلّ بك ما حل بي».

فقال وليد لرغيد وسعيد: «لا تضيعا وقتي، واعترفا أنكما حماران، واتركاني أهتم بعملي».

قال رغيد وسعيد بصوت واحد: «وما هو عملك؟».

قال وليد: «أنسيتما أني متزوج من أمل الجميلة الذكية العصية على الإرضاء».

قال سعيد: «ستطردك من الشباك، فهي تحب شاربيّ، وتعتبرهما دليل الرجولة الحقة».

وقال رغيد: كانت تحب شعري، وتلمسه دائماً وتقول عنه إنه كشعر حصان أسود».

وفي تلك اللحظة، حاولت أمل فتح باب الحمام، فألفته مغلقاً من الداخل، فضربت خشب الباب بقبضتها عدة ضربات غاضبة، وصاحت على سعيد: «ماذا تفعل في الداخل؟ افتح الباب».

فبادر سعيد إلى فتح الباب، وشهقت أمل عندما لمحت رأسه الأصلع، وصاحت به حانقة: «ماذا فعلت بنفسك؟».

فجلس سعيد على الكرسي خائر القوة، وقال لأمل بصوت خفيض مرتعش: «لم أرد إزعاجك بالأخبار السيئة، فمعالجة

السرطان تبدأ من المواد الكيماوية التي تضعف الشعر وتسقطه تدريجياً، ففضلت أن أزيله دفعة واحدة».

صاحت أمل: «أأنت مصاب بالسرطان، وكيف لم أعلم؟».

قال سعيد: «اكتشف الأطباء إصابتي منذ أربعة أسابيع، وبقي لي في الحياة حوالى ستة أشهر ستكون شهر عسل طويلاً».

فقال رغيد لسعيد بصوت لم تسمعه أمل: «ما هذا الحب الخرائي؟ أتعذبها بالأخبار الكاذبة ولا تشعر بأي خجل من نفسك الخسيسة؟».

وقال وليد لسعيد: «انظر إليها. ما فعلته بها لا ينم عن أي حب».

فقال سعيد لهما: «نقدكما لي في محله، وأرحّب به، وسأسارع إلى تصحيحه».

وقال سعيد لأمل: «اغضبي علي واشتميني، فقد كنت أشك في حبك لي وكذبت هذه الكذبة عن المرض حتى أعرف مكانتي في قلبك».

ـ: «ما دمت لست مريضاً بالسرطان، فلماذا حلقت رأسك؟».

ـ: «استدعيت إلى الخدمة في الجيش».

فقالت أمل بصوت متهدج: «وهناك ستموت ولا يجدون جثتك للدفن».

ـ: «سامحك الله يا أمل، تتكلمين كأننا نعيش في أيام خالد بن الوليد رضي الله عنه. الجنود في الحروب الحديثة لا يمسهم أي أذى، يرتدون الثياب الخضر المرقطة، ويسيرون بها في

الاستعراضات والأسواق متباهين مطوقين بنظرات الاحترام، وصالحين في أية لحظة للتصوير الفوتوغرافي والتلفزيوني».

ـ: «يجب أن تدفع لي تعويضاً عن الرعب الذي جعلتني كذبتك أرتعبه».

فاحتضنها، وطرحها أرضاً وهو يقول لها لاهثاً إنه سيدفع ما عليه من تعويضات بغير تأخير، فأخفى رغيد ووليد وجهيهما خجلاً وغيرة، ولكن الرجال الثلاثة سرعان ما تناسوا خلافاتهم وتوحدوا في رجل واحد ركض في حديقة قاطفاً وردها آكلاً ثمارها حتى الشبع، ولم يغادرها، وظل يترنح في دروبها معربداً.

48

عاش مالك وعبد القادر في ما يشبه بيتاً واحداً ضيقاً، وتشاركا في دفع إيجاره الشهري بغير اختلاف، فقد سبق لهما أن ولدا في قرية واحدة، وأحبّا فتاة واحدة، وتعرضا لهوان واحد وازدراء واحد، وتخرجا في سنة واحدة من جامعة واحدة، وواجها بطالة واحدة.

وفي صباح يوم ماطر، أفاق عبد القادر من نومه مشمئز الوجه ناقماً على جواربه العتيقة البالية، وقال لمالك إنه لا يبالي بالمطر وسيذهب إلى السوق لشراء جوارب جديدة، فرجاه مالك بصوت مرح أن يشتري له امرأة شهية، فقال له عبد القادر: «يا أخي يا مالك لا تطلب مني ما لا أستطيعه، فالمرأة التي تعجبني قد لا تعجبك».

فقال له مالك: «لا تجادلني. أنا واثق بأن المرأة التي تعجبك ستعجبني حتماً».

فابتسم عبد القادر، وقال لمالك: «سأحاول إذن أن أشتري لك امرأة لا شبيه لها».

ـ: «أريدها بيضاء».

ـ: «ستكون أكثر بياضاً من قطن الصيدليات، ويستحيل بياضها وردياً حين تخجل أو تغضب أو تفرح».

ـ: «وأريدها ذات شعر طويل أسود».

ـ: «سيكون شعرها كالفحم، وإذا كان أشقر أمرتها بأن تصبغه باللون الأسود».

ـ: «وأريد لحمها بارداً في الصيف ودافئاً في الشتاء، وأريدها أن تضحك كأن الدنيا لا غمّ فيها، وأريدها مطيعة إذا قلت لها إن البحر بلا ماء آمنت فوراً أن البحار كلها من غير ماء».

فضحك عبد القادر، وقال لمالك: «لو عثرت على مثل هذه المرأة، فسأنسى كل أصدقائي، وأشتريها لنفسي».

فقال مالك بثقة: «لا تكذب، فأنت من الرجال الذين لا يخونون أصدقاءهم من أجل امرأة».

فوعده عبد القادر بشراء أجمل امرأة، فتظاهر مالك بالاغتباط، وقال لعبد القادر محذراً: «إياك أن تختارها من النوع الذي يعضّ».

وغاب عبد القادر ساعات في السوق عاد بعدها مبتلاً وقد اشترى ما يحتاج إليه من جوارب جديدة، ولكنه لم يشتر أية امرأة، وقال لمالك: «كل النساء المعروضات اليوم في السوق كنّ للإيجار القصير الأمد ولسن للبيع، والناظر إليهن يصاب بالغثيان والصداع».

فقال مالك: «غيّرت رأيي في غيابك، وقررت شراء تلفزيون ملون شاشته طويلة عريضة يسلي أكثر».

ولم يكن مالك يهذر، واقتنى بعد أيام جهاز تلفزيون صغير الشاشة، فقال له عبد القدر: «سأتركك الليلة تسهر وحدك مع تلفزيونك، وأسهر مع جواربي الجديدة أسامرها وتسامرني، وسنعرف في الصباح أيّ السهرتين أفضل».

وجلس مالك في غرفته باسترخاء يشاهد ما يعرض على الشاشة الصغيرة، ووجد نفسه بعد ساعات يغالب نعاساً يثقل أجفانه، فتخيل أنه مكبل اليدين، معصوب العينين، مكمم الفم، محاصر بمن تركوا شاشة التلفزيون وأحاطوا به حانقين موبخين، ولكزه أحدهم قائلاً له: «افتتحت البرامج بالنشيد الوطني، فلماذا تثاءبت ولم تقف احتراماً؟».

وقال له مذيع آخر ملتح مؤنباً: «لماذا لم تنصت للقرآن الكريم وتشاغلت بالنظر إلى ذبابة؟».

وقالت له مذيعة سمينة بصوت مستنكر: «ألا تخجل من كونك تبتسم بسخرية كلما سمعت كلاماً عن حقوق المرأة؟».

وقال له ممثل فكاهي بازدراء: «من أنت حتى لا تضحك عندما كنت أمثل؟».

وقالت له مغنية متسائلة بدهشة: «أأنت حائط؟ لقد غنيت حتى بحّ صوتي، ولم ترقص طرباً».

وما تخيله مالك ساعده على أن يفتح عينيه إلى أقصاهما، ويحملق إلى نشرة أخبار مصورة تضمنت مشهداً لجنود يطلقون النار على أطفال يسيرون في مظاهرة غاضبة، فتخيل مالك رصاصة

طائشة ترتطم بصدره وترميه أرضاً، فشهق متوجعاً مرعوباً، وتفحص صدره بأصابع مرتعدة، فلم ير ثقباً دامياً ولا جرحاً، ولم تتخضب أصابعه بأي دم، واستغرب أن يستمر إحساسه بالألم، وسارعت يده إلى إطفاء جهاز التلفزيون، ولكنه استمر في رؤية جنود يهوون بسيوفهم على رقاب أطفال ورجال ونساء، ويحرقون أشجاراً خضراً عاجزة عن الاستغاثة.

49

كانت الحارة الجوانية والحارة البرانية متجاورتين، ولهما سوق واحدة ومقهى واحد ومسجد واحد، ولكن تاريخهما كان حافلاً بالمشاجرات والكراهية، وقد نشب بينهما نزاع جديد بعد أن روّج بعض الرجال من الحارة الجوانية شائعات تدعي أن النساء في الحارة البرانية يضربن رجالهن بقسوة إلى حد أنهم يبكون مستغيثين، فردّ رجال الحارة البرانية فوراً بشائعات أخرى تزعم أن الزوجات في الحارة الجوانية يستقبلن عشاقهن علانية بحضور أزواجهن، فغضب رجال الحارة الجوانية غضباً شديداً، فما قيل يمس رجولتهم وشرفهم، ولا يجوز السكوت عليه، وتكذيبه لن يكون كلاماً، وباتت الحارتان أشبه بقنبلة موقوتة لا يدري أحد متى ستنفجر، فسارعت نساء عاقلات من الحارتين إلى الالتقاء سراً، وتحدثن مطولاً عن الخلاف بين الحارتين، وفجأة قالت أم عدنان أشهر عجوز في الحارة الجوانية للنساء اللواتي من الحارة البرانية: «هل صحيح أنكن تضربن رجالكن إذا خالفوا أمراً أو قصّروا ليلة؟».

فتنهدت النساء متحسرات، وتمنين بأصوات عالية لو كنّ فعلاً

قادرات على ضرب أزواجهن، ثم بدأن بالتهامس مبتسمات بمكر، فقالت أم عدنان لهن: «أنا لست غبية، فهيا اسألن بلا حرج ولا خجل».

فقالت إحداهن بصوت مرتبك متسائل: «هل صحيح أن المرأة عندكم تنام على السرير مع صاحبها بينما زوجها ينام على الأرض؟».

فلطمت أم عدنان وجهها براحتيها بقوة، وقالت لهن بصوت يقطر غيظاً: «كل رجال حارتنا وكل رجال حارتكم.. من منهم يصلح عشيقاً؟ كلهم أسوأ من العمى».

فتصايحت النساء موافقات، واتفقن على العمل بسرعة لإزالة أي جفاء بين رجال الحارتين، وعدن إلى بيوتهن، ونشطن ليلاً محاولات إقناع أزواجهن بأن ما بين الحارتين ليس أكثر من سوء تفاهم بسيط قد يحدث مثله بين الإخوة، فنجحن نجاحاً باهراً، وكبرت بعد أشهر بطون بعضهن، وانتشرت في الحارتين شائعات جديدة مختلفة تقول إن رجال الحارة البرانية يضربون زوجاتهم، فلا تتذمر الزوجات بل يشترين عصياً مرنة هدية للرجال حتى لا تتعب أيديهم وأرجلهم في الصفع واللطم والركل، وتقول أيضاً إن رجال الحارة الجوانية يجلبون عشيقاتهم إلى بيوتهم، فتسارع الزوجة إلى الترحيب بالعشيقة، وتحتفي بها، وتساعدها على خلع ثيابها والتزين، وتعدّ للزوج والعشيقة أشهى الأطعمة، وتختفي ولا تظهر إلا إذا طلبت بإلحاح.

وما إن انتشرت تلك الشائعات وعوملت كأنها حقائق حتى ساد الهدوء في الحارتين، وتوارت الخناجر والسكاكين والهراوات التي كانت تتأهب لمعارك دامية، وفوجئت الحارتان برجل أجنبي

وقور يزورهما، ويقدم نفسه على أنه الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة، فرُحب به، وسمح له برعاية الحفل التاريخي الذي وقع فيه ممثلو الحارتين معاهدة سلامة وصداقة، وسمح له أيضاً بالإدلاء لمراسلي المحطات التلفزيونية الفضائية بتصريح أشاد فيه بالحارتين، واعتبرهما تبشيراً بما سيسود العالم من حل كل الأزمات الخطيرة بالطرق السلمية، وأعلن أنه حالما يحال إلى التقاعد سيقضي بقية حياته في الحارتين، ويسكن بيتاً نصفه في الحارة الجوانية، ونصفه الآخر في الحارة البرانية، فسرّت الحارتان، وتباهتا بما لهما من مكانة مرموقة بين أمم الأرض، وتعزز الوئام بينهما حتى أوشكتا أن تصبحا حارة واحدة، ولكن ثمة تبدلاً مباغتاً طرأ على رجال الحارتين، فالرجال في الحارة الجوانية يبحثون عن خليلات من حارات أخرى معتمدين على مساعدة زوجاتهم الحالمات بليال طويلة ليس فيه إلا النوم العميق، والرجال في الحارة البرانية يضربون زوجاتهم في الصباح والمساء.

50

دخلت بهيجة مستشفى الوليد مثقلةً بالهموم متمنيةً لو كان زوجها برفقتها، ولكنه مات قبل أسابيع قليلة، وحرم رؤية أطفال يندفعون إليه، ويتمسحون بساقيه.

وقد أخبرتها الممرضة بصوت مبشّر أنها ولدت ذكراً، فنسيت بهيجة آلام المخاض، وطلبت من الممرضة أن تراه فوراً، واحتضنته برفق ولهفة، وأسمته (بهجت)، وسألت الممرضة: «أليس اسم بهجت اسماً جميلاً؟».

فضحكت الممرضة وهي تضع الطفل في سرير صغير قريب، وقالت لبهيجة: «اسم جميل، ولكنني أفضل الأسماء المودرن».

ولم تستطع بهيجة إبعاد نظراتها عن ابنها، وشعرت أن كل نظرة إليه تزيد ابتهاجها عمقاً، ولكنها وجدت نفسها بعد قليل مرغمة على أن تغفو، وصحت فجأة على صوت رفيع نزق يلعن الممرضات والأطباء والمستشفيات، وذهلت بهيجة حين تبين لها أن المتكلم اللاعن لم يكن سوى ابنها، وندت عنها شهقة تعجب،

فالتفت بهجت إلى أمه، وابتسم لها كأنه يعرفها منذ ملايين السنين، وسألها بإشفاق: «ألم تجدي في البلد أحسن من هذا المستشفى الزفت؟».

فغمغمت بهيجة باضطراب وارتباك، فقال لها بهجت: «هذا المستشفى كما لاحظت ليس بالمجاني، ومن واجب العاملين فيه خدمة مرضاهم ليل نهار، ولكنهم تركوك وحيدة ساعات من غير أن يدخل طبيب أو ممرضة للاطمئنان على صحتك، ويجب ألا تسكتي على هذا الإهمال، فمن يأخذ نقودنا يحق لنا أن نأخذ روحه».

فقالت له بهيجة: «أنت تتكلم!».

قال بهجت كأنه أهين: «أنا لا أتكلم فقط بل أقرأ وأكتب وأعدّ من الواحد إلى العشرة، ولن أحتاج إلى مدارس وجامعات».

وسمعت بهيجة في تلك اللحظة جلبة عند باب غرفتها، فظنت أن أحداً يهمّ بدخول الغرفة، وقالت لابنها بصوت خفيض محذّر: «اسكت ولا تنطق بحرف واحد».

فضحك بهجت، وقال لأمه: «ها أنت تتكلمين كما يتكلم الحكام».

فقالت بهيجة: «لو علم أهل المستشفى أنك تتكلم، فهل تعرف ما سيحدث؟ أنا نفسي لا أعرف، ولكن قلبي غير مطمئن ويحدثني أني سأفقدك، ولا أدري بالضبط ماذا سيفعلون بك».

فعاود بهجت الضحك، وقال لأمه: «لن تفقديني إلا إذا تزوجتُ امرأةً تكره الحموات».

فقالت له بهيجة: «تظاهر أنك لا تتكلم كغيرك من الأطفال، وسترى أن الصمت مفيد، والصامت يرى أكثر مما يراه المتكلم».

فوعد بهجت أمه بأن لا يتكلم، وقال لها: «قبل أن أسكت، أود إخبارك بأن أبي زارني عندما كنت نائمة، وهنأني بسلامة الوصول، وأعجب باسمي الذي كان اسمه، وعانقك طوال نصف ساعة، وسيزورك كلما كنت نائمة».

فانهمرت أسئلتها عليه ملحاحة، ولكنه تقيّد بوعده، ولم يقبل أن يتكلم حتى عندما تركا المستشفى وصارا وحدهما في البيت.

وقال بهيجة لبهجت بعد سنة: «آن لك أن تتكلم كغيرك من الأطفال».

ولكن بهجت لم يتكلم، ولم يعبأ بتوسل أمه، وأخفقت كل محاولاتها لإغرائه بالتكلم، وظل متشبثاً بصمته حتى عندما صار عمره عشرين سنة، وحاول البحث عن عمل، ولم يجد عملاً يرحب بأخرس، وكل الأعمال المتاحة صالحة لثرثارين، فواسته أمه قائلة: «لسنا محتاجين إلى أي عمل، فأبوك ترك لنا ما يكفينا وأكثر».

وفي ظهر يوم جمعة، دخل بهجت أحد المساجد بغير أن يتوضأ، وانضم إلى رجال يجلسون باسترخاء على سجاد سميك طري مغمورين بأنوار ثريات كثيرة المصابيح، ويتحلقون صامتين خاشعين حول رجل عجوز ممتلئ الجسم ذي لحية مشعثة، يتكلم عن ركوب الرجال والنساء معاً في الباصات، ويقول عليه بحدّة وصرامة إنه حرام لأن الرجال يتعرضون للإغواء بارتكاب الزنا، فضحك بهجت ضحكة مرحة قوبلت بالامتعاض، وعجز عن

الاستمرار في الحفاظ على سكوته، ووجد نفسه مدفوعاً إلى التكلم، وسأل العجوز بصوت عال: «وهل الزنا حرام يا سيدنا؟».

فبهت العجوز، ولكنه ابتسم مدمدماً: «أولئك هُمُ الكفرةُ الفجرةُ».

فقال له بهجت بصوت ساخر: «صدقنا وآمنا بأن ركوب الباصات حرام، فهل ركوب الحمير في الليل حرام أيضاً أم أنه حلال؟».

قال العجوز بصوت وقور: ﴿وكَرّهَ إليكم الكفر والفسوق والعصيان. أما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾.

فصاح بهجت بغيظ: «سألت بعض الأسئلة، ومن حقي أن أسمع أجوبة عنها».

فقال له أحد الرجال بصوت آمر: «اسأل أسئلة تنفع الأخوة المسلمين».

ففكر بهجت لحظات ثم قال: «لديّ سؤال واحد لسيدنا. هل صحيح يا سيدنا أن المشرك نابليون بونابرت لم يكن يملك غير خصية واحدة عندما احتل مصر المسلمة؟».

فنهره العجوز قائلاً له باحتقار: «تأدب يا غلام!».

فتطلع بهجت إلى وجوه الرجال القريبين منه، وقال لهم: «أنتم تطلبون الدبس من النمس، وتنتظرن الهداية ممن يرى الرجل الطويل العريض غلاماً، فنجانا الله ونجاكم مما يحلّ بالغلمان!».

فغضب العجوز، وغضب المعجبون به ومريدوه وأنصاره وتلاميذه،، وهجموا على بهجت هجمة رجل واحد، وضربوه بأحذيتهم، فقاومهم وهو ينصحهم بأن يكفوا عن ضربه حتى لا

يلوث دمه السجاد الثمين، فجرّوه إلى باحة المسجد، وتابعت أحذيتهم ضربه حتى أغمي عليه، فتعاونوا على حمله، وألقوا به خارج المسجد.

وعندما صحا بهجت من إغمائه، أوقف سيارة تاكسي، وطلب من سائقها إيصاله إلى البيت، وهناك حاول أن يتكلم ليخبر أمه ورجال الشرطة بما حلّ به، فعجز عن النطق بكلمة واحدة، ومات بعد أيام قليلة بسبب إصاباته، فأحست بهيجة بأنها مزيج من الأرملة واليتيمة، واكتظ بيتها بالمعزيات، وسمعت بعضهن يتهامس حول خرس ابنها، فهمّت أن تتصدى لهن وتحدثهن مطولاً عن ابنها الذي تكلّم في المهد، ولكنها تراجعت عما عزمت عليه، وابتعدت عنهن بخطى سريعة كأنهن جثث عفنة، وفيما بعد تخلت بهيجة تدريجياً عن كل الكلمات، وأتيح لها كلما توغلت في صمتها أن ترى ابنها يتمرغ على الأرض تبكيه أوجاع رأسه المضروب حتى الموت، ولكن صمتها يمنحه قوة طارئة، فيصبر على ألمه ويتجاهله، ويمسح دموعه، ويركض فوق رمال صحارى، لا شمس تشرق عليها ولا قمر يبزغ ولا نجمة تتلألأ، فلا يضلّ ولا يضعف، ويستمر في ركضه السريع لعله يصل في يوم قريب إلى أمه ويرتمي بين ذراعيها طفلاً يولد ثانيةً بغير آلام مخاض عسير.

51

غادرت بيتي في الصباح المبكر من دون أن أغسل وجهي بالماء البارد كعادتي، فاستوقفني أحد جيراني، وقال لي متسائلاً وهو يرمقني بنظرات متفحصة: «هل المياه في بيتك مقطوعة لأنك تأخرت عن تسديد الفاتورة المستحقة؟».

وقال لي البقال وهو يضع ما أريده من السكر في كيس ورقي: «لماذا لم تتناول طعام الإفطار؟ هل نسيت أن الحفاظ على الصحة سليمة يتطلب بدء النهار بمعدة ملأى؟».

وقال لي الجزار وهو يقطّع اللحم الأحمر قطعاً صغيرة كما رغبت: «أنت مخطئ لأنك تسمح لزوجتك أن تتمادى في إهانتك، وكلما تجاهلت إهاناتها تضاءل احترامها لك».

وقال لي الخباز وهو يزن خبزاً طلبته: «القراءة قبل النوم في نور ضعيف تؤذي العينين».

وقال لي بائع الخضروات وهو يتسلم من يدي ثمن ما اشتريته

منه: «كيف لا تغضب من برود زوجتك في الفراش ليلة أمس؟ لو كنت زوجها لطلقتها حالاً».

وقال لي كلب أسود كان منهمكاً في نبش كومة من القمامة: «ستذهب بعد ساعة إلى عملك، وسيهينك رئيسك، وستجبن عن الرد عليه».

فاستنكرت تدخله في ما لا يعنيه، وركلته بقسوة، فابتعد عني وهو ينبح متوجعاً، ولم يهرب كما كنت أتوقع، وتأهب للانقضاض عليّ، فبادرت إلى الابتعاد بخطى مسرعة، وعدت إلى البيت لأضع فيه ما اشتريته، وهناك قررت ألا أذهب إلى العمل حتى أتمتع بغياب زوجتي عن البيت ثلاثة أيام ستقضيها في زيارة أهلها، ودخلت غرفتي المفضلة، وجلست وراءَ طاولة خشبية يتناثر الورق الأبيض على سطحها، وخيل إليّ أني كتبت على الورق الأبيض أن السماء تمطر، فإذا الرعود تقصف وأعقبها هطول أمطار غزيرة، وخيل إلي أني كتبت أيضاً أن القطط تطير، فطار قطي الأسود، وحوم في سماء غرفتي لا يخفي ضجره، وأوشك أن يصطدم بالمصباح الكهربائي المتدلي من نهاية سلك مثبت بالسقف، فقلت له بصوت مؤنب: «ألا ترى أني أكتب؟ اهدأ وكُف عن الضجيج حتى أستطيع أن أتابع كتابة ما أريده قبل أن تطير الكلمات من رأسي».

فحطّ القط على سطح الطاولة التي أجلس وراءها، وسألني: «ماذا تكتب وأنت لست بتلميذ أو كاتب؟».

قلت: «أحاول كتابة قصة عن هتلر وعبلة».

قال القط: «لا يوجد هتلر وعبلة. يوجد هتلر وإيفا وعنتر وعبلة».

فأعجبت بثقافة قطي، وسألته: «أين تعلمت؟ وفي أية مدرسة؟».

فقال القط مبهوتاً: «أعوذ بالله! لو ذهبت إلى المدرسة لنسيت الطيران».

فعاودت الكتابة، فسألني القط: «ماذا تكتب الآن؟».

قلت: «أكمل كتابة القصة عن هتلر وعبلة، ولا تتهمني بالجهل، فقد تعمدت استبدال عنتر بهتلر لغاية في نفس يعقوب، وما إن تنشر قصتي حتى سيكتب عنها النقاد بوصفها تصويراً للتصادم بين الحضارتين الأوروبية والعربية، وكل حضارة لها قيمها الخاصة».

فلم أسمع أي تعليق من قطي، فنظرت إليه مستفسراً، فإذا هو نائم، فأمسكت قلمي مثلما أمسك ملعقة وبحركة من يتأهب لكتابة آلاف الكلمات بغير توقف، ففتح القط عينيه، وسألني: «هل ستكتب عني؟».

قلت: «أنوي كتابة رواية عنوانها (قنديل أبي هاشم)، ولم أنجز منها حتى الآن غير عنوانها فقط، وما زال موضوعها يطهى على نار هادئة».

فقال قطي الأسود: «ولكن عنوان روايتك مسروق من رواية مشهورة عنوانها (قنديل أم هاشم)».

قلت: «ما سأكتبه سيكون جزءاً ثانياً من الرواية مكملاً ما بدأه كاتبها المتوفى».

فقال قطي وهو يتثاءب: «أنا متأكد أن كاتبها لو كان لا يزال حياً وعلم نبأ اعتزامك كتابة هذه الرواية لمات فوراً».

فلوحت بمسطرة خشبية مهدداً قطي، فطار نحو الشباك المطل على الحديقة، وقال لي: «افتح الشباك قليلاً، فهواء الغرفة بات فاسداً يخنق».

فقلت له: «أتظن أني أبله؟ أفتح لك الشباك، فتطير وتهرب ولا ترجع».

وخيل إلي أنه يحملق إلي معجباً بمكري، وبعد لحظات من الصمت، سألته: «أأنت زعلان مني لأني لم أفتح لك الشباك؟».

فقال لي القط بدهشة: «ولماذا أزعل؟ لو طرت في الحديقة، فقد ينقض علي عصفور ويأكلني».

فحدقت إليه معجباً بحرصه على سلامته، ولكني تنبهت فجأة إلى أنه يحدق إلى ما على سطح طاولتي من أوراق بيض متحيراً، فسألته عما به، فقال لي: «تتكلم كثيراً عما تكتبه، ولكن الورق أمامك ظل أبيض يخلو من أية كلمة، فهل تكتب بحبر سري أم أنك لم تكتب بعد وتكتفي بالتحدث عما تريد أن تكتبه ولا تكتبه؟».

فقلت للقط ضاحكاً: «أنت تتكلم بأسلوب المحققين ولا تتكلم كصديق لا يفارقني في الليل والنهار».

وجلست باسترخاء غارقاً في ما يشبه التفكير العميق، فاقترب مني قطي الأسود، وسألني بفضول عما أفكر فيه، فأجبته أني أفكر في المستقبل، فسألني: «هل تنوي في المستقبل شراء بندقية لصيد الأسماك التي تتواثب من شجرة إلى شجرة وتتلف الحديقة؟».

فقلت للقط: «أفكر في أن العلماء في المستقبل قد ينجحون في اختراع صندوق عجيب له شاشة مضيئة يظهر عليها الأشخاص، ويتحركون ويتكلمون».

فقال لي القط بصوت ساخط: «هل تتهكم علي؟ ما تتحدث عنه قد تمّ اختراعه، وهو جهاز التلفزيون، ولكنك لم تشتر واحداً لأنك بخيل».

فقلت لقطي: «لو اشتريته لشغلني عنك ومنعني من التحدث معك وتسليتك».

فسكت القط لحظات ثم قال لي فجأة: «سأشتري لك جهاز التلفزيون حتى ولو اضطررت إلى طلب قرض من الصومال».

فقلت للقط متهدج الصوت: «لم أعلم أنك تحبني إلى هذا الحد».

فقال لي بهزء: «كأنك نسيت أني قط، والقطط لا تحب أحداً».

فلذت بالصمت غاضباً دقيقة أو دقيقتين ثم عدت إلى محادثة قطي، ورجوته أن يجول في بيوت الجيران وينصت لما يقال من أسرار ويرجع إلي وينبئني بها حتى أتسلى قليلاً وأتخلص من ملل يوشك أن يقتلني، ففوجئت بقطي يغضب ويقول لي مرتجف الذيل إنه ليس بواشٍ ولا بنمام.

فقلت له متسائلاً: «أيرضيك أن أموت ضجراً؟».

قال القط: «اخرج من البيت. من يسجنك فيه؟».

قلت: «إلى أين أذهب؟».

قال القط: «زر أصدقاءك».

قلت: «وأين الأصدقاء؟».

قال القط: «اجلس في مقهى».

قلت: «ليس من عاداتي الجلوس في المقاهي».

قال القط: «تسكع في الطرقات».

قلت: «التسكع يحتاج إلى قوة في الساقين لا أملكها».

فأشفق عليّ قطي، وهمّ بالذهاب إلى بيوت الجيران، فرجوته أن يعنى عناية خاصة بأخبار الرجال الشبيهين بالنار والنساء الجميلات الشبيهات بالفراشات، وعاد إلي بعد ساعات ليحكي لي مطولاً عن قطة بيضاء كالثلج، مواؤها أجمل من الموسيقى، فقلت له إني مريض لا أقوى على النهوض من السرير لمخابرة الطبيب، ورجوته أن يتلفن حالاً لأي طبيب قبل أن أموت، فقال لي القط: «ستموت وآكلك على مهل».

فأمرته بالكف عن المزاح، فقال لي: «وماذا سأقول للطبيب؟ مياومياو».

قلت للقط: «حدثه كما تحدثني الآن».

قال القط: «كل قط مسموح له في حياته بالتكلم مع شخص واحد فقط، ومن المؤسف أني اخترت من هو قصير العمر، ولن يتاح لي بعد موتك التكلم مع أحد غيرك».

قلت للقط: «ما دمت سأموت، فيجب أن أوزع كل أموالي على الفقراء».

قال القط: «اسكت اسكت ولا تجعلني أموت ضحكاً».

قلت للقط: «ويجب أن أودع أهلي وأقربائي».

قال القط: «أنت آخر حي في العائلة».

قلت للقط: «ليس من اللائق أن أموت من دون أن أرى زوجتي».

قال القط: «لا داعي إلى رؤيتها لأنها قد تزغرد شامتة».

قلت للقط: «ومن سيدفنني؟».

قال القط: «أنسيت أنك لن تحتاج إلى جنازة وقبر لأني سآكلك وأدعو أصدقائي من القطط إلى مشاركتي؟».

فأغمضت عيني، ومتّ، وانتظرت أنياب القطط آملاً أن تكون مؤهلة لتمزيق اللحم البارد.

52

غادر شكري النمر المدرسة التي يدرّس فيها منذ أعوام، وقصد بيته ليباغت بورقة بيضاء مثبتة بباب المطبخ تنبئه فيها زوجته أن أمها مريضة وستذهب إلى زيارتها، وتوصيه بإخراج الطعام من البراد وتسخينه قبل تناوله، فأهمل وصيتها، وحاص في أرجاء بيته الصغير ضجراً، وتخيل أنه يكلف تلاميذه بكتابة موضوع إنشاء عن معلم في مدرسة متزوج من أرملة عاقر يحبها، وملّ البقاء وحده في البيت، وخرج منه إلى شارع صاخب يعج بالناس، وهناك رأى امرأة عجوزاً شديدة الشبه بأمه تتأهب للانتقال من رصيف إلى رصيف، وحاول مساعدتها، فضربت رأسه بحقيبة يدها، واتهمته بأنه يريد سرقتها، فتنبه آنذاك إلى تقصيره المخجل تجاه أمه إذ لم يرها منذ سنوات، وسارع إلى زيارة قبرها، ووقف لصقه محني الرأس والظهر، فسألته أمه: «هل تزوجت؟».

فأخبرها أنه قد تزوج، فسألته: «كم ولداً لديك؟».

فقال لها بصوت خافت: «واحد فقط».

فقالت له: «لا تكذب».

فقال لها: «ليس لدي أي ولد».

فسألته: «من الكسلان؟ أنت أم زوجتك؟».

فغادر المقبرة بغير أن يودع أمه، وحاول ركوب باص، فمنعه الجابي بحجة أن الباص مملوء بالركاب مع أن معظم مقاعده فارغة، وطلب إليه الركوب في باص آخر، فشتم طه النمر الباصات ومخترعيها، ومشى على قدميه حتى وصل إلى بيته بادي الإعياء ليجد زوجته تضحك وتحكي مع أطفال غير مرئيين، فسألها عن أمها المريضة، فقالت له بحزن: «لا أظن أنها ستنجو هذه المرة».

وقالت للأطفال: «هي اذهبوا وسلموا على البابا».

فساير زوجته، وتخيل أطفالاً يطوقونه مطلقين الصيحات المرحة، ونام على ضوضائهم التي تناءت عنه رويداً رويداً.

واستيقظ شكري النمر صباحاً، فإذا البيت صامت كالمقبرة، وزوجته في المطبخ تحتسي القهوة وتبكي مرتدية الثياب السود، فطلبت منه ارتداء ثياب بلون ثيابها، وقالت له: «أسرع حتى لا نتأخر عن جنازة أمي».

فبادر إلى ارتداء ثيابه، وطلب إلى أولاد غير مرئيين تناول طعام إفطارهم على عجل حتى لا يتأخروا عن مدرستهم.

53

جاع فتحي، فاشترى تفاحتين، واحدة حمراء، والأخرى بيضاء، وقصد حديقة عامة قريبة، وجلس على أحد مقاعدها، وهمّ بأن يأكل التفاحة البيضاء، فسألته: «هل سأعدم بلا محاكمة؟».

فقال لها فتحي: «لستِ بأحسن من الناس».

قالت التفاحة: «وهل سأحرم أيضاً كتابة وصيتي الأخيرة؟».

قال فتحي: «لن آكلك أولاً حتى لا أتهم بمعاداة التفاح الأبيض».

وهمّ فتحي بأن يأكل التفاحة الأخرى الحمراء، ولكنها قالت له مهددة: «ستندم إذا أكلتني».

قال فتحي: «نجانا الله من الندم!».

قالت التفاحة: «أنت بالتأكيد تجهلني وتجهل الجهات التي تدعمني».

فقال لها فتحي متسائلاً: «هل أنت عضو في حزب يحكم أو يعارض؟».

قالت التفاحة الحمراء: «أظن أنك ستسألني أيضاً عن علاقتي بتهريب المخدرات وترويجها؟».

قال فتحي: «هل أخوك ضابط في الجيش؟».

قال التفاحة: «هل سمعت عن تفاح يحمل السلاح ويقتل؟».

قال فتحي: «هل خالك وزير؟».

قالت التفاحة: «ليس في عائلتي أي موظف حكومي، فعمل الأشجار لا يتلاءم مع القوانين والأوامر والقرارات».

قال فتحي: «هل عمك من ذوي العمائم الكبيرة؟».

قالت التفاحة: «هذا سؤال لا يوجه إلى تفاحة حمراء».

قال فتحي: «هل لك قريب مليونير؟».

قالت التفاحة: «لا وجود في التاريخ المكتوب لشجرة تفاح واحدة دخلت بنكاً».

فضحك فتحي ضحكة قصيرة ساخرة، وأكل التفاحة الحمراء والتفاحة البيضاء غير مبال بصياحهما المحتج، ومسح شفتيه بمنديل ورقي، وقذف به بعيداً عنه، فتذمر المنديل من ناكري الجميل.

54

دخلت امرأة عجوز، محنية الظهر إلى حديقة عامة شجرها عاري الأغصان، ووقفت قبالة تمثال حجري شاهق لرجل طويل القامة، صارم الوجه، يده اليمنى مرفوعة بمهابة وخشوع كأنها تبارك عبيده الراكعين غير المرئيين، فاجتاح العجوز خوف طاغ جعل ساقيها تضعفان، وأرادت أن تحدق بحقد إلى قاتل أبنائها وأبيهم، ولكن نظراتها عجزت عن التخلي عن وداعتها وكآبتها، وشعرت العجوز بأنها تتضاءل، واستمر تضاؤلها حتى اختفت، وتضاءل كل ما كان حولها من بشر وأبنية وشجر واختفى ولم يبق غير التمثال والطيور التي يطيب لها التغوط عليه.

لا يُصدق ما حدث له: أكل حفظه الله مصادفة مواطناً بغير أن يدري أنه شاعر موهوب، فتبدلت طباعه، وصار حفظه الله شاعراً مجوّداً على الرغم من أنه كان لا يفرق بين الخد وباطن القدم..

لا يُصدق ما حدث له، فكلما التهم حفظه الله واحداً منا رثاه بكلمات متفجعة فاحمة تنثر الملح فوق الماء..

لا يُصدق ما حدث له حفظه الله، ولا يُصدق ما حدث لنا، فالمحشو بلحمنا والباكي علينا واحد، ولن نحتاج إلى طلقتين، ولكننا لم نطلق أية طلقة لأن الكلاب الشاردة المهزولة نبحت محذرة من أن جيش العدو يقترب بسرعة، فركض حفظه الله ورجاله ذوو الشوارب الصلفة إلى غرف نومهم بخطى مذعورة، تنوء أجسامهم بما حملت من سلاح، وخبأوا رؤوسهم تحت وسائدهم من دون أن يعبأوا بما سيحدث لباقي الجسد، وتجاهلوا الأيدي الغليظة التي عرتهم من ثيابهم، ولم يستطع ما جثم فوقهم أن ينتقص من فرحتهم بنجاة أعناقهم من التبلل بدمائهم، بل رحبوا به بداية تأسيس لعائلة كبرى إنسانية، وبثوا شائعات مفادها أن

جنود العدو الغاشم ليسوا سوى نساء جميلات متنكرات، فعمت البهجة في البحر والبر والجو، وكبرت أذنا حفظه الله في تلك اللحظة، وتمكنتا من سماع تضرعات الناس المصوبة إلى السماء راجية منها أن تجود عليهم بالقليل من الماء، فاستجاب حفظه الله لضراعتهم، وهطل فوقهم مطره الغريب الأطوار، فما إن تمس قطرة منه رأساً من رؤوسهم حتى تثقبه وترتشف كل ما فيه وتطرحه جمجمة كأن صاحبها مات قبل ألف سنة، فتصايح الناس هلعين طالبين من السماء أن تنقذهم مما حل بهم، فضحك حفظه الله ضحكاً مرحاً طويلاً حتى ابتلت عيناه بالدموع، وأمر أعوانه أن ينبهوا الناس إلى أن السماء المستغاث بها ليست سوى مجرد فضاء أزرق رحب أصم أبكم، وليس لهم سواه حفظه الله، فهو وحده المغيث المجيب القادر، فهرعت القبائل إليه حفظه الله مهللة مكبرة عدا قبيلتنا الصغيرة المنبوذة المطوقة بالازدراء، فاحتلت أرضها، ونهبت ثرواتها، وتبعثرت نساؤها تحت المغتصبين، وصارت قبيلتنا هزأةً بين القبائل، فأقسمنا أننا سنثأر ولو بعد مليون سنة، ونسترد أرضنا وثرواتنا، ونمحو العار عن نسائنا، ولكننا كنا عزلاً ضعافاً يجري الفزع في عروقنا بدلاً من الدماء، فبكينا طوال سنين مستجدين العون ممن وحده يملك العون، فأرسل جنداً غير مرئيين يحملون إلينا أحدث أنواع الأسلحة، فتفحصناها معجبين فرحين، وما إن مسسناها حتى فقدت أجسامنا ضعفها وخوفها، وباتت قوية مفتولة العضلات لا تهاب أحداً، فرحبنا بما حدث لنا، وبادرنا إلى إنشاء متجر أشبه بقرية صغيرة مختص ببيع السلاح، فذاع صيته بين القبائل، وكثر زبائنه، وصرنا من مشاهير الأثرياء، ولم نعد نطلب إلا العمر الطويل، وتكللت مساعينا السرية بالنجاح، وحصلنا على

تعهد خطي بأننا لن نموت، وبعنا قبورنا وقبور آبائنا وأجدادنا وأحفادنا بأبهظ الأسعار، وبتنا بين القبائل القدوة المحسودة.

56

صحا علي الطيب من غيبوبة دامت أعواماً، وحوّلته عجوزاً قبيحاً متهدلاً يمشي بتثاقل محني الظهر متوكئاً على عصا تتشبث بها يد هزيلة الأصابع مرتعشة، وقد خرج من المستشفى الذي دخله شاباً كالرعد، وعاد إلى بيته، واستقبل الكثيرين من أقاربه الذين بادروا إلى زيارته لتهنئته بنجاته من داء محير، وحرص على أن يسألهم بإسهاب وإلحاح عن أحوالهم حتى علم بكل ما جرى لهم إبان غيابه، ثم سألهم أسئلة كثيرة لا تتصل بحياتهم الشخصية، فكانت أجوبتهم سريعة مقتضبة:

لا تزال الشمس تشرق كل يوم، ولا يزال اليوم نهاراً وليلاً، ولا يزال الصيف طويلاً وحاراً والشتاء طويلاً وبارداً.

رئيس الجمهورية باق في منصبه لم يُغير ولم يتغير، ويزداد صحة وشباباً، ويعتزم السير في جنازات مواطنيه أجمعين وأبنائهم وأحفادهم.

رئيس الوزراء لم يُبدل ولم يتبدل، ولا يزال يركض يومياً عشرة أميال.

رئيس البرلمان لم يُغير ولم يتغير، وطلق أخيراً زوجاته الثلاث، واستبدلهن بواحدة لا تتجاوز العشرين من عمرها.

وزير الخارجية لم يُبدل ولم يتبدل، وما زال الوزير المهاب.

وزير الدفاع لم يُغير ولم يتغير، وأصبح مؤهلاً لشراء عدة مصارف.

وزير التجارة لم يُبدل ولم يتبدل، وما زالت هوايته اقتناء السجاد الثمين مجاناً.

وزير الإعلام لم يُغير ولم يتغير، وما زال يحكي في النهار والليل.

وزير الثقافة لم يُبدل ولم يتبدل، ووهبته الثقافة قبل وفاتها كل ما تملك.

وزير الصحة لم يُغير ولم يتغير، وصحته على ما يرام، وفي كل عشرة أعوام قد يصاب مرة بزكام.

وزير التعليم لم يُبدل ولم يتبدل، وثمة شائعات قوية تبشر بأنه قد يستبدل بعد مائة سنة.

وزير الداخلية لم يُغير ولم يتغير، وكيف يتغير ما دامت الشمس لا تتغير؟

وسأل علي الطيب أقاربه عن مقهى اعتاد التردد إليه، فقيل له إنه هدم وصار جزءاً من شارع عريض يعج بالسيارات المسرعة، وسأل عن صحافي يحترم جرأته، فقيل له إنه قد هجر الصحافة، وافتتح دكاناً لتصليح الأحذية العتيقة، وسأل عن ممثلته المفضلة، فقيل له

إنها ماتت إثر إصابتها بالسرطان، وسأل عن راقصة اعتاد الإعجاب بها، فقيل له إنها شاخت وانضمت إلى المحجبات، وسأل عن مغن يطرب له، فقيل له إنه بات مختصاً بالدعايات التلفزيونية، وسأل عن شاعر يحفظ قصائده، فقيل له إنه انتحر، وسأل عن أحد الأنهار، فقيل له إن ماءه نضب، فأغمض علي الطيب عينيه، وحاول أن يعود إلى غيبوبته، فأخفقت محاولته.

57

اعتقل كامل المحصال في منتصف الليل بينما كان يغادر إحدى الخمارات بخطوات متثاقلة، واتهم بأنه عضو خطير في تنظيم سري ديني مسؤول عن الكثير من الاغتيالات، فأحس بالخوف والدهشة في آن واحد، ولكن دهشته تغلبت على خوفه، فضحك طويلاً، ولم يتوقف عن الضحك إلا بعد أن انهال عليه الصفع واللطم والركل، وتوسل إلى المحققين أن يسألوا قليلاً عنه وعن حياته، فهو معروف بأنه لم يدخل يوماً أي مسجد، ويقامر كل ليلة ويسكر ويرجع إلى بيته محمولاً، ولا هم لديه إلا مطاردة النساء الجميلات واصطيادهن، ولكن المحققين سخروا من حججه، وادعوا أنها مجرد قناع مدبر بخبث شديد للاختباء خلفه وممارسة أبشع الأعمال.

وقضى كامل المحصال أشهراً في أقبية المحققين حياً ميتاً مطالباً بالبوح بما يجهله ولا صلة له به ثم تُرك في السجن أعواماً بغير محاكمة حتى اقتنع أنه لن يخرج منه إلا حين يموت.

وفجأة عقدت السلطات الرسمية اتفاقاً غير معلن مع التنظيمات الدينية السرية، وابتدأت تطلق سراح أعضائها المسجونين من دون

أن يهتم أحد بكامل المحصال، فتذمر واحتج واشتكى، فقيل له بازدراء وصرامة إنه رجل فاسق ملحد لا علاقة له بالمتدينين والسياسة، وليس له أن يستفيد من الاتفاق الرسمي المبرم، فغضب، وصمم على الهرب، ونجح في الهرب من ذلك السجن الذي لم يستطع أحد من قبل الهرب منه، فحسده زملاؤه في السجن لأنه سيستنشق هواءً حراً غير سجين، وجن جنون الجهات الرسمية المختصة، واعتبرت ما حدث تحدياً لها وانتقاصاً من هيبتها، وأمرت بالإسراع في القبض عليه وإعادته إلى زنزانته مكسّراً مهشماً مكبلاً بأثقل الأغلال، فانتشر رجالها القساة على اختلاف اختصاصاتهم في كل مكان كالدبابير الهائجة يبحثون عنه، ويدهمون البيوت ليلاً، ويحققون مع كل من يشك في أنه يعرف كامل المحصال، ولكنهم لم ينجحوا في العثور عليه كأنه ماء تبخر، ولكنه لم يكن ماءً يتبخر بل كان بارعاً في التنكر حتى أن أمه لو رأته لما عرفته، ولو اعترض طريقها وقال لها إنه ابنها لأنكرته بنزق وعداء، وكان أيضاً قادراً على تلفيق كل ما يمكن أن يحتاج إليه من أوراق ووثائق رسمية ويملك بعض المال الذي يتيح له العيش المريح والتعرف إلى العالم خارج السجن، والذي بدا له جديداً مغرياً غامضاً وحشياً محيراً جديراً بأن يقتحم.

ويئست الجهات الرسمية المختصة من مطاردة كامل المحصال، وروّجت لشائعات مفادها أنه إما هرب إلى بلد أجنبي بعيد، وإما قتل خفية بأيدي رفاق له وشى بهم، ولكن كامل المحصال لم يقتل ولم يهاجر، وظل يعيش في بلده متابعاً تنكره المتقن، والتقى مصادفة امرأة عشقها واحترمها وتزوجها وصار أباً لابن ما إن كبر في السن حتى حاول السطو على أسلحة ثكنة عسكرية، فحكم

عليه بالسجن عشر سنوات، وعاش سجيناً مطيعاً لا يشكو ولا يتذمر، ويعامل زنزانته بحبّ كأنها البيت الذي ولد فيه، وكلما رأى في نومه أنه يمشي في الشوارع حراً استيقظ مذعوراً كأنه كان يمشي في جنازته.

58

تدفق رجال مسلحون بالمسدسات على بيت فريد المربع قبل شروق الشمس، وانتزعوه من سريره، وحملوه وهو في ثياب النوم إلى غرفة في مستشفى مغلق يستخدم مركزاً مؤقتاً للتحقيق، وألقوا به عند قدمي محقق منفوش الشعر، يرتدي ثياباً داخلية بيضاً وسخة، ويتثاءب ويفرك عينيه بأصابعه كأنه أيقظ تواً من نومه لأمر طارئ عاجل، وهناك اتهم بأنه يرفض أن يرتشي، فتطلع فيما حوله بفضول باحثاً عن ذلك الذي لا يرتشي، فلطمه المحقق قائلاً له: «لا تمثل دور الأبله، فأنت الذي ثبت لدينا أنك ترفض الرشوة وتعادي الراشين والمرتشين».

فشهق فريد المربع مستنكراً، وأوشك أن يغمى عليه، وبادر إلى إنكار التهمة مؤكداً أنه من أسرة ليس فيها من يرفض نعمة الرشوة..

وقال فريد المربع للمحقق إنه مشهور بإطاعته لوالديه، وأمه أوصته وهي تحتضر ألا يرفض أية رشوة، وأبوه هدده بأنه سيتبرأ منه إذا ما نمي إليه يوماً أنه رفض الرشوة بحجة أنها ليست بذات قيمة،

وطالبه ألا ينسى لحظة أن الرجل العاقل يقبل الرشاوى الصغيرة جسراً للرشاوى الكبيرة، والصغائر الخسيسة تقود إلى الكبائر الجليلة..

وقال فريد المربع للمحقق إن ما اتهم به كذب مفضوح، فأقاربه يرتشون، وجيرانه يرتشون، وأصدقاؤه يرتشون، وزملاؤه في العمل يرتشون محاولين تقليده، ولا يوفقون، فهو يرتشي من غير توقف حتى صار حساده يسمونه بالمنشار، ولو كان يعيش معتمداً على راتبه فقط لما كان الآن حياً..

وقال فريد المربع للمحقق إن الرشوة زينة الحياة الدنيا، وجدت لتبقى وتقهر خصومها الأغبياء الزائلين.

وكل ما قاله فريد المربع للمحقق لم يخلصه من تعذيب شرس دام أياماً طويلة بطيئة، ولكنه لم يغيّر موقفه المرحب بالرشوة والمتحمس لها، وعرض على المحقق مبلغاً من المال ليس بالضئيل قابلاً للزيادة غير قابل للنقصان يتسلمه في مستهل كل شهر، فاقتنع المحقق آنذاك ببراءته، وأمر بإطلاق سراحه، فعاد فريد المربع إلى أهله الذين استقبلوه كأنه عائد من القبر، ولكن اعتقاله واتهامه بتلك التهمة الشائنة جعلاه حتى موته لا يجرؤ على المشي بين الناس مرفوع الرأس.

59

نشبت حرب شرسة بين عبد المجيد الرويلي صانع الملاءات وبائعها وبين فؤاد سيرين الذي تحوّل من مصور فوتوغرافي يشكو قلة العمل إلى بائع للثياب النسائية المستوردة من أحدث دور الأزياء العالمية، وازدادت حربهما عنفاً لأن دكانيهما متجاوران، وكان فؤاد سيرين واثقاً بأن جاره خاسر لا محالة لأن النساءَ مللن الملاءات ويهجرنها ويتنافسن على ارتداء الثياب الحديثة، ولكن عبد المجيد الرويلي لم يستسلم، وحرض شيخ المسجد على القيام بدوره في الحفاظ على الأخلاق الحميدة التي ستضيع إذا تخلت النساء عن الملاءات، فتنهد الشيخ بأسف واكتفى بالقول إن الكلام غير مفيد إذا كان الناس بغير آذان، وكلّم عبد المجيد الرويلي رجالاً كثيرين، وحثهم على إرغام نسائهم على ارتداء الملاءات حتى لا يعمّ الفساد، فأيدوه بحماسة، ولكن عيونهم الزائغة أكدت له أن النساء بتن قوامات على الرجال، فيئس، ولم يعد يصنع إلا عدداً ضئيلاً من الملاءات، ويقضي معظم أوقاته جالساً في دكانه واجماً ساهماً يراقب بحسرة جموع النساء المتوافدات إلى دكان جاره،

وبدا أن الحرب بين الجارين انتهت بانتصار ساحق لفؤاد سيرين إذ كانت سلعه تحظى بالرواج وتحقق له الأرباح الطائلة، ولا يدخل دكان جاره سوى العجائز اللواتي يساومن أياماً ولا ينفقن قرشاً إلا بعد أن يزهقن روح البائع، ولكن فؤاد سيرين فوجئ بعد شهور أن النساء تضاءل إقبالهن على دكانه وكسدت بضائعه، ولا أحد مسؤولاً سوى جاره عبد المجيد الرويلي الذي هجر صنع الملاءات وبيعها، وصار مختصاً بصنع الثياب الحديثة وتقليدها، فأي ثوب أجنبي يطرح في السوق يبادر إلى تقليده وبيعه بسعر زهيد مدعياً أن الثوب الأجنبي مصنوع للاستهلاك السريع ويتلف بعد أشهر قليلة لتضطر المرأة إلى شراء غيره بينما هو يصنع ثوباً لا تضطر المرأة إلى شراء غيره إلا إذا كانت كثيرة المال مبذرة، وكان لا يقلد إلا أشهر الماركات العالمية.

وحاول فؤاد سيرين أن ينبه إلى أن البضاعة المزورة لا يمكن أن تكون في جودة البضاعة الأصلية، فلم ينصت له أحد لأن الأسعار الرخيصة تملك حججاً أقوى، ووجد نفسه مرغماً على الاعتراف بهزيمته في الحرب بينه وبين جاره والاستغناء عن الاستيراد وشراء الثياب من عبد المجيد الرويلي، ورحب بهزيمته عندما ازدادت أرباحه، وبدأ يخطط مع شركاء لتهريب مصنوعات الرويلي إلى البلاد التي تبتكر الثياب الحديثة وتصدرها.

60

لا أحد يكره عمر الدكر، فهو متواضع مرح يستغل مهنته كشرطي لمساعدة المعتقلين، ويلقنهم خفية الإفادات المراوغة الماكرة التي يستحسن الإدلاء بها في أثناء التحقيق معهم حتى تنجيهم من التعذيب أو البقاء في السجن مدداً طويلة، ويقوم في الوقت نفسه بدور ساعي البريد بين المعتقل وأهله.

لا أحد يكره عمر الدكر، فهو قانع بحياته، وكلما طلب إليه السعي لتحسين أحواله وأحوال أسرته مثلما يسعى الجميع، ضحك، وقال: «سبحان خالق التنك والذهب! من سمع أن التنك صار ذهباً والذهب صار تنكاً؟».

لا أحد يكره عمر الدكر، ولكن كل ما في بيته من أثاث قد سرق عندما كان مداوماً في المخفر وزوجته تزور أهلها وأولاده في المدرسة، ولم يكن الأثاث مغرياً بالسرقة، فهو عتيق، رخيص السعر عندما كان جديداً، ولم تسفر تحريات عمر الدكر عن أية جدوى، وأخبره جيرانه أنهم عندما رأوا الأثاث ينقل من البيت ظنوا أنه ينتقل إلى حي آخر من دون أن يعلمهم أو يودعهم وعتبوا عليه.

وفوجئ عمر الدكر بعد أيام بأن زوجته قد سُرقت أيضاً، فقوبل ما حلّ بها بالعجب، فهي ليست بالصبية، ودميمة وثرثارة، ولا تصلح نبيذاً ولا خلاً.

وسُرق بعد أسابيع أبناء عمر الدكر الثلاثة بينما كانوا خارجين من مدرستهم، وبدت سرقتهم عملاً أحمق، فهم صغار السن، لا يجيدون إلا الشتائم وابتلاع الطعام غير معترفين بوجود الشبع.

ولم تؤثر تلك السرقات في عمر الدكر، وظل يضحك ويأكل بشراهة وينام، فسرت شائعة تتهمه بأنه هو السارق، واكتسبت كل يوم أنصاراً، وسرعان ما تبين بطلانها، فعمر الدكر نفسه سُرق واختفى كغبار في يوم ماطر، فاستغرب كل من كان يعرفه، فهو كسلان ومتكاسل، أكّال شره، نؤوم، مطحون بسبعة أمراض، ولكن المعتقلين في المخافر والسجون كانوا الأكثر استغراباً إذ باتوا يدلون للمحققين بإفادات مضطربة تجلب لهم أنواعاً شرسة من التعذيب وإقامة بالسجون أطول من إقامتهم ببيوتهم، وحتى عمر الدكر نفسه استغرب ما حل به من تبدل إذ صار شرطياً مختلفاً، رشيقاً، يقظاً، صارماً، شديد القسوة، فظاً، بارداً برود موت، ويسكن في حي جديد، وبيته مملوء بأثاث فاخر لا يوجد مثله في بيوت رؤسائه، وكان كل اللصوص يخشونه، ويحرصون على إرضائه، فهو الذي يعرفهم لصاً لصاً كأنه كان القابلة التي أخرجتهم بالقوة من بطون أمهاتهم، ويعرف أيضاً حتى الذين سيصبحون في المستقبل لصوصاً، ولكنه كان لا يمانع في أن يمارسوا مهنتهم شرط أن يتقيدوا بما هو متفق عليه، فلهم نصف ما سرقوا، وله النصف الآخر الذي يتسلمه بيدين ثابتتين مردداً أنه ولد فقيراً ولن يموت فقيراً.

ولم يكن عمر الدكر يستثني أحداً حتى أنه عندما ضبط ابنه وقد سرق كتاباً من مكتبة عامة، وبخه بازدراء، وأحصى عدد صفحات الكتاب، ومزق نصفها، أما إذا ضبط لصاً يغش أو يخدع، عاقبه فوراً بزيادة حصته أو الاستيلاء على ما هو مسروق بكامله.

وقد تجرأ يوماً لص ناشئ على التذمر، وقال لعمر: «نحن نتعب ونعصي الله ونغامر بأرواحنا حين نسرق، وأنت لا تحرّم ولا تحلل، وتهبجنا آمناً مطمئناً وبلا خجل».

فابتسم عمر بازدراء، وقال له: «صحيح أن التكلم مع الأغبياء يقتل، فلو كنت فهيماً لقبلت يدي وقدمي شاكراً لأني لا آخذ نصف ما سرقته بل آخذ أيضاً نصف ذنوبك التي ستحاسب عليها يوم القيامة الحساب العسير».

ولقد اشتهر عمر بأنه الرجل الذي لا يغضب، فكانت زوجته تمازحه وتنصحه بالمعالجة لدى طبيب حتى يشفى من بروده ويغضب، ولكنه غضب غضباً ضارياً يوم علم أن رجلاً باع بيته وقبض ثمنه نقداً، وذهب إلى البنك لإيداعه، فاعترض طريقه لص مسلح، وسطا على ثمن البيت، ولاذ بالفرار.

وأحس عمر أنه قد أهين إهانة لا تمحى، ولم يصدق بأن ثمة لصاً حياً يتحداه بمثل هذه الصفاقة والوقاحة والدناءة، وصمم على معرفته والعثور عليه حتى ولو كان مختبئاً في سابع أرض حتى يلقنه درساً سيظل كل اللصوص يذكرونه مرتجفين، ولكن اللص بقي مجهولاً يتمتع وحده بما سرق، فقنط عمر قنوطاً أبعده عن كل ما في الدنيا من مسرات وصفقات، وبات لا يأكل إلا نادراً، وأدمن السكر ليل نهار، ولا ينام إلا بعد ابتلاع عدة حبوب منومة غير

مبال بنصائح أهله الفزعين، فمات موتاً مفاجئاً زاخراً بالآلام، وحرص اللصوص على المشاركة في جنازته، ومشوا وراء نعشه بخطى متمهلة وقور غير فرحين أو شامتين لعلمهم أن كل شرطي يضطر إلى الغياب يحل محله فوراً شرطي آخر، وراقبوا منكسي الرؤوس جثته الملفوفة بكفن أبيض متسخ تحمل إلى حفرة القبر، وتفرقوا آسفين إذ لم يجدوا بين المشيعين من يليق به أن يسلب، ووجد عمر نفسه وحده ممدداً على تراب القبر الرطب، فتمنى لو أنه جلب معه وسادته المريحة المحشوة بالقطن، وكان القبر مظلماً إلى حد أن اليد تستطيع لمس ظلمته إذا أتيح لها أن تتحرك، فقال عمر لنفسه: هذا دليل جديد على أن شركة الكهرباء لا تفرق بين حي وميت.

وما إن أتى الليل حتى دخل قبره ملاكان من دون موعد مسبق أو استئذان، فرحب بهما على الرغم من أنه لم يرهما من قبل، واعتذر لهما عن عدم تمكنه من استقبالهما في زيه الرسمي كشرطي لا يعصي لا الله ولا رسوله ولا الحكومة، وسألهما عن الوقت الذي تستغرقه إجراءات نقله إلى الجنة، وبرر سؤاله بأنه لم يسبق له أن مات، ولا يعرف كيف تسير الأمور في العالم الآخر مؤكداً أن الجنة تحتاج إلى شرطي مثله يتمتع بخبرة طويلة، فأخبره الملاكان أنهما مكلفان التحقيق معه حول حياته المنتهية، وسيبدآن ببعض الأسئلة، فتجهم وجه عمر، وقال لهما باستنكار: «لم أتخيل أن الدنيا ستهزل إلى حد أصبح فيه مطالباً بالإجابة عن الأسئلة وأنا الذي قضيت عمري كله أوجه الأسئلة وأسمع الأجوبة».

ورفض عمر أن يجاوب عن أي سؤال، ولكنه وعد بتغيير موقفه إذا وافقا على أن يساعداه، وحكى لهما عن ذلك اللص المجهول

الذي تحداه في عقر داره، ومرغ سمعته في الأوحال، وأقسم أنه سيجاوب عن كل سؤال إذا أخبراه باسم السارق، فقال الملاكان إنهما لا علاقة لهما بعالم اللصوص، ولن يتاح لهما معرفة اسم السارق إلا بعد موته واستجوابه، فبوغت عمر بما سمعه، ولكنه تنهد بارتياح عميق، وتخلى وجهه عن عبوسه، وقال للملاكين: «عرفت الآن كم كنت أهبل عندما أردت معرفة سارق عجزت الملائكة نفسها عن معرفته».

وأنبأهما أنه قد غير موقفه احتراماً لزيارتهما، ووعد بالإجابة عن أسئلتهما في ليال أخرى راجياً أن يعتبرا زيارتهما الحالية مجرد زيارة تعارف، ولكنه حذرهما من ذاكرته الضعيفة التي لا تؤهله إلا للإجابة عن نصف أسئلتهما، وتثاءب بصوت مسموع، وقال بصوت واهن متحشرج إن جنازته في النهار أرهقته واستنفدت كل قواه، وغطى وجهه بكفن، ونام نوماً ثقيلاً، ولكنه سرعان ما استيقظ عندما أصابت رأسه الركلة الأولى.

61

كانت مديحة امرأة تكتئب حين ترى شخصين يتحادثان بود، وتتفعى مستغلة موهبتها في ابتكار الجديد والغريب من النمائم والمكايد، ولا ترتاح وتهدأ إلا عندما يختلفان ويصيران عدوين، ولكنها كانت في الوقت نفسه تظهر أمام زوجها ربيع السقال مجرد امرأة ضعيفة، مسالمة، سمراء، جذابة، قليلة الكلام، وديعة، طيبة، يأكل القط عشاءها، فلا يطاوعها قلبها الرقيق على طرده.

وعندما بارت تجارة زوجها، وأشهر إفلاسه، لم تتخل عنه، وشجعته على مواجهة مدينيه الشرسين الذين لم يتركوا في محله التجاري وبيته شيئاً ذا قيمة إلا واستولوا عليه، وهدده بعضهم بالقتل، فتصدت مديحة للمهددين بجرأة قائلة لهم: «قتله سهل، ولكنه لن يرجع أموالكم، والتجارة يوم ربح ويوم خسارة، وإذا ظل حياً، فلكم أمل باسترجاع أموالكم».

ولكن أشرسهم فهد الرامي كان غير مستعد للاقتناع بأية حجة، وقال إنه يفضل أن يخسر ابناً على أن يخسر قرشاً، وأقدم على اختطاف مديحة مقسماً أن الزوجة رهينة لن تعود إلى زوجها إلا

إذا عادت أمواله إلى جيبه، واحتفظ بها في بيته حيث زوجته وشقيقاته الثلاث العوانس اللواتي يعشن معه، ولم يلجأ ربيع السقال إلى الشرطة، فهو من بيئة لا تحبذ حل الأزمات عن طريق الشرطة، وفضل إرسال وسطاء يحظون بالاحترام، فلم يوفق كلامهم الجميل العاقل في إقناع فهد الرامي بإطلاق سراح مديحة، وظل مصراً على أن الزوجة ستبقى لديه معززة مكرمة، وستعود إلى بيتها يوم تعود أمواله إليه.

وما إن مر زهاء أسبوعين حتى ذهل فهد الرامي من التغير الذي طرأ على الحياة في بيته بسبب مديحة ودسائسها المحكمة، فهو قد تشاجر مع زوجته، وزوجته تشاجرت مع شقيقاته، وشقيقاته أنفسهن اختلفن فيما بينهن خلافاً أوشك أن ينتهي بالتراشق بالقباقيب، وأيقن فهد الرامي أن مديحة إذا بقيت في بيته، فكل ما في البيت من حيطان سيتشاجر مع السقوف وينهار البيت، فسارع إلى إعادتها إلى زوجها ربيع السقال معتذراً وشاتماً نزقه الذي يدفعه إلى ارتكاب حماقات مخجلة، فابتسم ربيع السقال، وسأله: «والمبلغ المستدان منك؟».

فتطلع فهد الرامي إلى ما حوله كأن السؤال موجه إلى شخص آخر غيره، وقال متظاهراً بالدهشة: «عن أي مبلغ تتحدث؟ أنا في حياتي كلها لم أدينك أي مبلغ. لا بد من أن ثمة خطأ في دفاترك المالية».

وبادر إلى الخروج من البيت، فرمق ربيع السقال زوجته مستغرباً، فوجدها كما تعوّد امرأة ضعيفة طيبة يأكل القط إفطارها وغداءها وعشاءها من دون أن تتجرأ على الاعتراض.

62

حدق سعدي إلى زوجته متصنعاً الاهتمام الشديد بما كانت تقوله كاظماً غيظه من فمها المفتوح الذي تتدحرج منه الكلمات بغير توقف، وكان واثقاً بأنه لو طعن لحمها بسكين في تلك اللحظات لما انبثق من شرايينها سوى كلمات تشبه القنافذ الصغيرة، وقد تحدثت مطولاً عن جاراتها وأكاذيبهن وشغفهن بالمظاهر البراقة، وتحدثت مطولاً عن الجزار الذي لا يخشى الله، ويغش كل زبائنه، ولو باع أمه لحماً لغشها، وتحدثت مطولاً عن قطة تتجول في الشوارع وتتسلل إلى البيوت، وتسرق اللحم المخصص للطهو، ولا تطعم صغارها إلا أطرى لحم، وأثنت على الكلاب، وطالبته باقتناء كلب شرس يتكفل بقتل القطة، فقاطعها سعدي راجياً أن تصمت دقيقتين فقط، فنظرت إليه معاتبة، وقالت له متسائلة: «أإلى هذا الحد كلامي غليظ؟».

ـ: «أعوذ بالله! لا تسيئي فهمي، كلامك دسم، ويحتاج سامعه إلى بعض الراحة حتى يبتلعه ويهضمه ويحوّله فيتامينات تسري في الجسم».

ـ: «عليك إذن أن تدفع لي أجرة الطبيب ما دمت أغذيك أحسن تغذية، وأجعلك مستغنياً عن الأطباء».

ـ: «أنا في الحقيقة لم أزر أي طبيب منذ زواجنا، ولكن قلبي يحدثني أن هناك طبيباً سيزورني عما قريب ليفحصني ويقرر أني متّ بالسكتة القلبية».

ـ: «ألم يخترعوا ما يحمي من السكتة القلبية؟».

ـ: «الاختراعات كثيرة، ولكنهم لم يخترعوا بعد دواء لمن يموت كمداً».

وفي تلك اللحظة، رنّ جرس التلفون، فهرع إليه سعدي كأنه منقذ غير متوقع، وأمسك السماعة، وألصقها بأذنه، وتحدث مع صديق دعاه إلى المجيء فوراً إلى المقهى ليسهرا معاً، ثم أعاد السماعة إلى مكانها، وقال لزوجته إن أحد أصدقائه تلفن له من المستشفى بعد أن دهسته سيارة وكسرت ساقه، وليس لديه من يهتم به، فسألته: «وزوجته؟».

ـ: «غير متزوج».

ـ: «كم عمره؟».

ـ: «ثلاثون سنة أو أقل».

ـ: «غني؟».

ـ: «مستور».

ـ: «وماذا يشتغل؟».

ـ: «لا يشتغل، فلديه من الأملاك ما يغنيه عن العمل».

ـ: «وكيف شكله؟».

ـ: «كأنه أخو المرحومة سعاد حسني».

ـ: «وكم ورث عنها؟».

ـ: «قلت كأنه أخوها ولم أقل إنه أخوها».

ـ: «ما رأيك في أن نزوجه أختي إنعام. هيا لا تضع الوقت في الثرثرة، وزره في المستشفى، وحدثه بلباقة وذكاء عن أختي وجمالها وأخلاقها وبراعتها في الطبخ».

ـ: «هل أحدثه أيضاً عن براعتها في ضرب زوجها الأول الذي ظل في المستشفى ثلاثة أيام؟».

ـ: «زوجها الأول كان لا يطاق ويستحق ما ناله، وكان ينام ويشخر عندما تحاول محادثته، ولو كنت زوجته لما اكتفيت بضربه ولقتلته».

فلاذ سعدي بالصمت مدهوشاً، فسألته زوجته مستغربة: «ما بك؟ هل ابتلعت لسانك؟».

فوضع سعدي يديه على أذنيه متظاهراً بالألم الشديد، وقال لزوجته إنه يرى شفتيها تتحركان ولا يسمع صوتها، وتوسل إليها أن تسارع إلى طلب طبيب.

63

صحا عارف من قيلولته المعتادة، وصاح بزوجته بصوت ممطوط: «أين القهوة يا رئيفة؟».

فدخلت رئيفة تواً غرفة النوم بخطى متعجلة، وقدمت إليه فنجان قهوة ساخناً يتصاعد البخار منه، وقالت له إن أمه تلفنت في أثناء نومه لتخبره أن أباه مزكوم ويسعل بشدة، فقال عارف: «خير.. خير».

وشرع في احتساء قهوته على مهل صامتاً، وفجأة قال لرئيفة: «هيا اطلبي. نظراتك تفضحك حين تريدين أن تطلبي طلباً».

فضحكت رئيفة، وطلبت منه أن يعلمها قيادة السيارة، فاحمر وجهه، ورفض طلبها بحجة حمايتها من أخطار تهدد حياتها بغير داع، فحاولت مناقشته، فقال لها بصوت باتر: «انسي الموضوع، ولا أريد سماعه ثانية».

وارتدى ثيابه متجهم الوجه، وغادر بيته في الطابق التاسع، وركب سيارته، وقصد بيت أهله، فوجد أباه نائماً وأمه ترتق

جوارب عتيقة، فجلس قبالتها واجماً، فسألته عما يزعجه، فروى لها ما طلبته رئيفة، فقالت له الأم بدهشة: «ولماذا الزعل؟ عندك سيارة، ورئيفة ذكية، وستتعلم بسرعة».

فنظر عارف إلى أمه باستنكار، وقال لها: «صحيح أن النساء بنصف عقل. الجدي لا يخدع التيس. اليوم ستركب السيارة وتقودها، وغداً ستركبني وتقودني».

وبادر إلى مغادرة البيت من دون أن ينتظر حتى يستيقظ أبوه، وقصد المقهى، وجلس مع أصدقائه، وعندما ابتدأوا كعادتهم كل ليلة في التنافس على هجاء زوجاتهم، حكى لهم عما طلبته زوجته، فامتدحوا مسلكه الحذر الواعي، ولكنهم رحبوا بحرارة بأن تركب على ظهورهم نساء أقل قبحاً من زوجاتهم.

وعندما سئم عارف من أصدقائه وجاع، رجع إلى بيته، فوجد رئيفة جالسة تتصفح مجلة نسائية، فاختطفها من يديها، ومزقها بحركات غاضبة، وقال لها إن هذه المجلة وأمثالها تنشر الخلاعة والمجون، ولا غاية لها إلا إفساد نساء المسلمين، فلم ترد رئيفة بأية كلمة، ونهضت محاولة الاقتراب من جهاز التلفزيون، فقال لها عارف بصوت محذر: «لا تخالفي ما اتفقنا عليه يوم وافقت على شرائه.. اتفقنا على تشغيله في أوقات نشرات الأخبار والأحاديث الدينية والقرآن الكريم، والتلفزيون الآن يعرض أفلاماً أجنبية ومسلسلات محلية، والأفلام محرمة لا تجوز مشاهدة فجورها، والمسلسلات تافهة تضر ولا تنفع».

فقالت رئيفة بصوت مختنق: «بماذا أتسلى؟».

فقال عارف باستغراب: «تسلي بتنظيف البيت، بغسل الثياب

وكويها، بمسح البلاط.. رياضة ونظافة في آن واحد. ألم أنصحك بحفظ القرآن الكريم حتى يشرح لك صدرك، فلم تحفظي غير سورة الفاتحة. البيت مملوء بكتب عن سير الرجال الصالحين. أحلق شواربي إذا مستها يدك مرة. أعوذ بالله من نساء آخر الزمان!».

فهرعت رئيفة إلى الشرفة، وحاولت أن ترمي بنفسها من الطابق التاسع، فمنعها عارف، ووبخها قائلاً إن الانتحار حرام وقتل نفس حرم الله قتلها، فهرولت إلى غرفة النوم، وارتمت على السرير، فتمدد عارف بجوارها، وحاول الإمساك بها، فابتعدت عنه كأنه رجل غريب، فقال لها مؤنباً إن المرأة التي لا تلبي رغبات زوجها المشروعة يغضب عليها الله ورسوله، فاستلقت رئيفة على ظهرها منفرجة الساقين متيقنة أنها ستحاول الانتحار ثانية.

مؤلفاته

- ☐ زكريا تامر، مواليد دمشق عام ١٩٣١.
- ☐ يكتب القصة القصيرة والخاطرة الهجائية الساخرة منذ عام ١٩٥٧.
- ☐ يكتب القصة الموجهة إلى الأطفال منذ عام ١٩٦٨.
- ☐ سبق له أن عمل في وزارة الثقافة ووزارة الإعلام في سورية، ورئيساً لتحرير مجلة «الموقف الأدبي»، ومجلة «أسامة»، ومجلة «المعرفة».
- ☐ ترجمت كتبه القصصية إلى الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية والبلغارية والروسية والألمانية.

صدر له:

سلسلة الأعمال القصصية:

- **صهيل الجواد الأبيض**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، ط١ ١٩٦٠، ط٢ ١٩٧٨، ط٣ ١٩٩٤، ط٤ ٢٠٠١، بيروت.
- **ربيع في الرماد**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، ط١ ١٩٦٣، ط٢ ١٩٧٨، ط٣ ١٩٩٤، ط٤ ٢٠٠١، بيروت.
- **الرعد**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، ط١ ١٩٧٠، ط٢ ١٩٧٨، ط٣ ١٩٩٤، ط٤ ٢٠٠١، بيروت.

- **دمشق الحرائق**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، ط١ ١٩٧٣، ط٢ ١٩٧٨، ط٣ ١٩٩٤، ط٤ ٢٠٠١، بيروت.
- **النمور في اليوم العاشر**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، ط١ ١٩٧٨، ط٢ ١٩٨١، ط٣ ١٩٩٤، ط٤ ٢٠٠٠، بيروت.
- **نداء نوح**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، ط١ ١٩٤٤، ط٢ ٢٠٠١، بيروت.
- **سنضحك**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، ط١ ١٩٩٨، بيروت.
- **الحصرم**، دار رياض الريّس للكتب والنشر، ط١ ٢٠٠٠، بيروت.